كشف الغمة عن بعض فضائل النبي صلى الله عليه وسلم والأمة كما ورد في القرآن الكريم

إعداد

د / محمود عبد اللطيف صالح محمد

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (١)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً(٢)﴾ (٣)

وبعد

فإن القرآن الكريم مازال وسيظل هو المرجع الأول للمسلمين في حياتهم منه يستمدون الهداية ، ومنه يستلهمون الأداب الكاملة والأخلاق الرفيعة الزكية ، وهو النور والهداية ﴿يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤).

وهو البلسم الشافي والدواء الناجح وهو المخرج الوحيد مما يعاني منه الناس اليوم وهو الشفاء للقلوب والأبدان ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٠٢ .

(٢) سورة الأحزاب الآيتان : ٧٠ ، ٧١ .

(٣) هذه تسمى خطبة الحاجة ، أخرجها أحمد في مسنده ١ / ٣٩٢ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٤) سورة المائدة آية (١٦) .

لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً ﴾ [1] وهو روح الحياة ولا تصلح الحياة إلا بالقرآن ومعه وفيه ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [2] وصدق النبي (ﷺ) حيث قال في حق القرآن الكريم " كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، ونوره المبين، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، ولا تتشعَّبُ منهُ الآراءُ، وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ولا يملهُ الأتقياءُ، وَلا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ يَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ أن قَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ، من عَلِمَ علمَهُ سبقَ، ومَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ". [3]

والحياة مع القرآن هى الحياة وليس هنالك شئ ينفق فيه الوقت وينقضى فيه العمر أجل من القرآن الكريم ، وكلما عاش المسلم في روح القرآن ، تعمق إيمانه، وازداد يقينه، وشعر بحلاوة القرب من الله تعالى، فهو المشتمل على الآداب السامية والأخلاق العالية، والتعاليم الفاضلة لأن الله ــ تعالى ــ جعل القرآن للمسلمين طريقاً وسبيلاً ، وأقام لهم على معرفته برهاناً واضحاً ودليلا ، وبعث به إلى الناس جميعاً نبيه ورسوله محمداً (ﷺ) معلماً ونبياً ورسولاً وجعله معجزة ما بقي الدهر سرمداً طويلاً ، وحفظه فلم يقدر مبطل ولا معاند أن يحدث فيه تغييراً ولا تبديلاً ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾. [4]

---

(١) سورة الإسراء آية (٨٢) .

(٢) سورة الشورى آية (٥٢) .

(٣) الترمذي ٤ / ٣٤٥ باب ما جاء في فضل القرآن ط الفجالة.

(٤) سورة الحجر آية (٩) .

ومن هنا وجب على المسلم العاقل والمؤمن الموحد قراءة القرآن ودراسته وتفهمه وتلاوته ، وعلى قدر قراءته وتلاوته، وتفهمه يكون عمله وإيمانه، وإسلامه وتوحيده ، ومن هنا حث الرسول (ﷺ) أمته على دوام قراءاته واستمرار دراسته لأنه أفضل العبادات، وأسنى الأعمال والقربات، عن أبي سعيد الخدري (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ)«يقول الرب تباركَ وتعالى : مَن شَغَلَهُ القرآن عن مسألتي : أعطيتُهُ أفضلَ مَا أُعْطِي السائلين» .[1] . وعن معاذ الجهني أن رسول الله (ﷺ) قال : مَن قرأَ القرآن وعملَ بهِ ، أُليسَ والداهُ تَاجا يومَ القيامةِ ، ضَوؤُهُ أحسنُ من ضوءِ الشمسِ في بيوتِ الدُّنيا لَو كانتْ فيكم ، فما ظنكُم بالذي عَمِلَ بهذا ؟» [2].

وقال (ﷺ)«مَن قرأَ القرآنَ فَاستظهرهُ ، فَأحَلَّ حَلالَهُ ، وحَرَّمَ حَرامَهُ ، أدْخَلَهُ الله بهِ الجنةَ ، وشفَّعَهُ في عشرة من أَهلِ بَيتِهِ ، كُلُّهُم قد استوجبوا النارَ» .[3]

وروى مسلم عن عائشة قالت قال رسول الله (ﷺ)« المَاهِرُ بالقرآنِ مع السَّفَرَةِ [4] الكِرَامِ البَرَرَةِ ، والذي يقرأُ القرآن ويَتَتَعْتَعُ [5] فيه وهو عليه شاقٌ ، له أجران»[6]

وقال (ﷺ) مرغبا في تعلم وتعليم القرآن فيما يرويه البخاري عن عثمان بن عفان قال : " خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ" [7].

ومن أجل هذا وغيره كان السلف الصالح رضوان الله عليهم ومن بعدهم الأئمة الأعلام والمجتهدون يقرأون القرآن ويجعلونه وردهم وحياتهم فاستخرجوا

---

(١) الترمذي رقم ٢٩٢٧ في فضائل القرآن باب رقم ٥ ، قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح.

(٢) أبو داود رقم ١٤٥٣ ، الصلاة باب في ثواب قراءة القرآن ورواه أحمد ٣ / ٤٤٠ .

(٣) الترمذي رقم ٢٩٠٧ في فضائل القرآن باب رقم ١٣ ورواه أحمد ١٤٨/١ ، ١٤٩

(٤) الماهر : الحاذق بالقراءة ، والسفرة : الملائكة . النهاية ٣٧٤/٤ .

(٥) يتتعتع : أي يتردد في قراءته ويتبلد فيها لسانه . النهاية ١٩٠/١ .

(٦) مسلم ٤٥٢/٢ ط الشعب باب قضية حفظ القرآن

(٧) البخارى كتاب التفسير باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ٢٣٦/٦ ط الشعب.

من أسرار هذا القرآن واستنبطوا منه الأدلة والأحكام لدنياهم وآخرتهم.

والسبب الذي دعانى إلى كتابة هذا الموضوع ما شاع وذاع بين المسلمين وغير المسلمين من ضعف أمة الإسلام وهوانها بين الأمم في هذا العصر فأردت أن ألفت نظر المسلمين وغيرهم إلى ما لهذه الأمة من مكانة ومنزلة عند الله عز وجل في الدنيا والآخرة وأنها الأمة التي احتفى بها الله - سبحانه وتعالى - وهى التى اختارها واجتباها من بين سائر الأمم حتى يفيق المسلمون ويثقوا في أنفسهم وفى اختيار الله واصطفائه لهم وكذا حتى يتبين لغير المسلمين ما لهذه الأمة من مكانة ومنزلة من أجل ذلك آثرت أن أكتب في هذا الموضوع راجياً من الله التوفيق والسداد والعون والقبول .

وقد كانت خطة هذا البحث على النحو التالي :

الباب الأول: فضل أمة النبي ﷺ كما في القرآن الكريم ويشتمل على:

أولا : شرح قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً . . . ﴾ الآية [1]

ثانيا : شرح قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ . . . ﴾ الآية[2]

ثالثا : شرح قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ

---

(١) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾[1]

الباب الثاني: مشاركة الأمة للنبي (ﷺ) في الفضل والمنة

ويشتمل علي ...

أولا : من فضائل سيدنا محمد (ﷺ).

ثانيا: بعض مظاهر مشاركة الأمة للنبي (ﷺ) في الفضل والمنة وتشتمل علي :

١- شهادة النبي (ﷺ) وشهادة أمته على الأمم.
٢- وعيد من يخالف أمره (ﷺ) وكذلك من يخالف أمر أهل الإيمان من أمته.
٣- السكينة تنزل على النبي (ﷺ) وعلى أهل الإيمان من أمته.
٤- مشاركة الأمة للنبي (ﷺ) في الجهاد لإقامة الدين.
٥- التأييد من الله للنبي (ﷺ) والأمة.
٦- الصلاة من الله تعالى وملائكته على النبي (ﷺ) وعلى المؤمنين به.
٧- الفتح من الله للنبي (ﷺ) ولأهل الإيمان من أمته.
٨- النصر من الله تعالى في كل الأمور للنبي (ﷺ) ولأهل الإيمان من أمته.
٩- الأمان من الخزي يوم القيامة للنبي ولأمته .
١٠- إكمال الإحسان وإتمام الإعطاء والرضا من الله على النبي (ﷺ) والأمة.
١١- الدعوة إلى الله والتبيين والبلاغ للناس فرض على النبي (ﷺ) والأمة.
١٢- التثبيت من الله للنبي (ﷺ) والصادقين من الأمة.
١٣- الشفاعة للنبي (ﷺ) وللأمة يوم القيامة.

****

(١) سورة الحج الآيتان ٧٧ ، ٧٨ .

الباب الأول

فضل أمة النبي (ﷺ) كما في القرآن الكريم

أولاً : وسطية الأمة :

- شرح قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً . . .﴾ الآية [1]

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية الكريمة : (ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى "هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس".[2]

والوسط العدل والخيار ، فكما أن الرسول (ﷺ) كان وسطا في قومه أى : أشرفهم نسبا كانت أمته وسطا بين الأمم وأشرفها .

قال القرطبي جعلناكم أمة وسطاً : أى جعلناكم دون الأنبياء في الأمم والوسط: العدل ، واصل هذا إن أحمد الأشياء أوسطها روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) : في قوله تعالى : "جعلناكم أمة وسطا" قال "عدلا" وفى التنزيل "قال أوسطهم"[3] أى : أعدلهم وأخيرهم، ولما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير كان محموداً أى : هذه الأمة لم تغل غلو النصارى في أنبيائهم ولا قصروا تقصير اليهود في أنبيائهم وفى الحديث "خير الأمور الوسط".[4]

---

(١) سورة البقرة آية (١٤٣) .

(٢) ابن كثير ١ / ١٩٠ ط الحلبي.

(٣) سورة القلم آية (٢٨).

(٤) القرطبي ١ / ٤٤ ط دار الغد.

والآية الكريمة أعنى قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ ناطقة بحقيقة هذه الأمة ومكانتها العالية بين الأمم وبيان منزلتها عند الله تعالى ولنا في هذه الآية وقفتان :

أ- الوقفة الأولى : وسطية الأمة :

وأمة الإسلام أمة وسط بكل معاني الوسط سواء أكان الوسط بمعني الاعتدال والقصد أم من الوسط بمعناه المادي الحسي .

وهذه بعض مظاهر وسطية أمة النبي (ﷺ) :

(١) أمة الإسلام أمة وسط في التصور والاعتقاد فلا هى تأله بشرا كما فعل النصارى حين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ولا هى ترتكس في المادية إلى الحد الذي طلب فيه اليهود أن يروا الله جهرة ولكن أمة الإسلام أمنت بالله الواحد منزهاً عن كل نقص قدوسا عن كل عيب ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.[١]

(٢) أمة الإسلام أمة وسط في التعبد والتنسك وقد قال رسولها (ﷺ) "إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا" رواه البخاري عن أبي هريرة.[٢]

قال المناوي في شرحه : يعني لا يتعمق أحد في العبادة ويترك الرفق كالرهبان إلا عجز فيغلب فسددوا أى : الزموا السداد هو الصواب بلا إفراط ولا تفريط "وقاربوا" أى إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه "وأبشروا" أى بالثواب على العمل الدائم وإن قل[٣]. إلى غير ذلك من النصوص والشواهد الكثيرة الدالة على وسطية الأمة في هذا المجال الواسع.

---

(١) سورة الشوري آية (١١)

(٢) البخاري كتاب الإيمان باب الدين يسر .

(٣) الكرماني شرح البخاري ، كتاب الإيمان باب الدين يسر ١/١٦٠ ط الهيئة المصرية.

(٣) أمة الإسلام وسط في المكان في سرة الأرض وفى أواسط ربوعها فهي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب وجنوب وشمال وصدق الله حيث قال: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (١)

وليس هذا البحث مجالا لاستقصاء الوسط في الإسلام وإنما هو مجرد ذكر لبعض مظاهر الوسطية في الإسلام ، والتي هي وسطية تشمل معظم أصول الإسلام وفروعه ، ولعل هذا التوسط هو سر مرونة هذا الدين واستمراريته حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولعل هذا التوسط أيضا هو ما يتناسب مع كون الإسلام ديناً للناس جميعاً أبيضهم وأسودهم وأحمرهم وأصفرهم ، وهم مخاطبون به مكلفون بالإذعان والاستسلام له.

ب- الوقفة الثانية :

وهى تتمثل في قوله تعالى :﴿ لِتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ وهذه ميزة عظيمة لأمة الإسلام شهد بها خالق الأرض والسماوات ومبدع الكون والكائنات وخصهم بها دون سائر الأمم والجماعات وقبل شهادتهم على من سواهم وارتضى هذه الشهادة عز وجل . وهذه الشهادة شهادة عامة تكون في الدنيا والآخرة.

من فضائل أمة محمد (ﷺ) : قيمة شهادتها على الناس في الدنيا :

الأمة الإسلامية أمة لها قدرها عند الله تعالى بدليل أن الله هو الذي سماهم مسلمين في الكتب السماوية وفى القرآن الكريم وما ذلك إلا لتقدير الله لها ولدورها المنوط بها في تحمل الرسالة.

---

(١) سورة الشورى آية (٧) .

قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [1] فأمة النبي (ﷺ) مرحومة في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فبسبب رسول الله (ﷺ) والاستغفار ، قال بعض السلف : (كان لنا أمانان من العذاب: النبي (ﷺ) والاستغفار فلما مات النبي (ﷺ) ذهب الأمان الواحد وبقي الآخر) [2]

وقد ورد في السنة المطهرة رفع الله العذاب عن أمة النبي (ﷺ) بالخسف أو الغرق أو السنة العامة ، روي البخاري عن جابر ﷺ لما نزل قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ ، قال (ﷺ) : أعوذ بوجهك ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: (أعوذ بوجهك) ، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال : هذا أهون أو هذا أيسر. [3]

وروى الإمام مسلم عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه أقبل مع النبي (ﷺ) ذات يوم مع العالية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألت ربي ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها. [4]

وقد رفع الله عن الأمة الخطأ والنسيان وما استكرهت عليه قال رسول الله (ﷺ) فيما يرويه ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ : وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" قال الألباني صحيح ، رواه البيهقي . [5]

---

(١) سورة الأنفال الآية رقم (٣٣)

(٢) البحر المديد لابن عجيبة ٣ / ٢٦ ط المكتبة التوفيقية

(٣) البخاري ، كتاب التفسير ، سورة الأنعام باب قوله (قل هو القادر)

(٤) مسلم ، كتاب الفتن ، باب أشراط الساعة .

(٥) صحيح الجامع ١ / ١١٩٥ تحت رقم ٧١١٠

وروى مسلم عند قوله تعالى : ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ عن ابن عباس (ﷺ) أن الله عز وجل قال عقب قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال قد فعلت ، ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال قد فعلت ، ﴿ وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا ﴾ قال قد فعلت.(١)

ومن رحمة الله بأمة محمد (ﷺ) في الدنيا أنه عصمهم من الإجماع على الضلالة ، عن أنس (ﷺ) قال : قال رسول الله (ﷺ) : "إن الله تعالى قد أجار أمتى أن تجتمع على ضلالة" حسنه الألباني (٢)

صحة شهادة أمة النبي (ﷺ) على الناس فى الدنيا :

وأما صحة شهادة أمة الإسلام على الناس فى الدنيا فيخبرنا رسول الله (ﷺ) عنها فى الحديث الذي ساقه الإمام ابن كثير فيما يرويه ابن مردويه عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي عن أبيه قال : سمعت رسول الله (ﷺ) ، بالبناوة يقول "يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم" قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيئ أنتم شهداء الله فى الأرض "قال ابن كثير ورواه أيضا ابن ماجة وأحمد). (٣)

ومما يبين أيضا صحة شهادة المسلمين على الناس فى الدنيا عند الله تعالى الحديث الذي رواه الحاكم عن أنس بن مالك ﷺ قال :شهد رسول الله (ﷺ) .. جنازة فى بني مسلمة وكنت إلى جانب رسول الله (ﷺ) ، فقال بعضهم والله يا رسول الله لنعم المرء كان لقد كان عفيفاً مسلماً وكان وأثنوا عليه خيراً فقال رسول الله (ﷺ) أنت بما تقول فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر فأما الذي بدا لنا

---

(١) مسلم ، كتاب الإيمان .

(٢) صحيح الجامع تحت رقم ١٧٨٦ ، ١/ ٣٦٧ ، وقال رواه ابن أبي عاصم عن أنس.

(٣) رواه ابن ماجه ١ / ١٤١١ ، كتاب الزهد باب الثناء الحسن ط العلمية.

منه فذلك فقال النبي (ﷺ) – وجبت : ثم شهد جنازة فى بني حارثة وكنت إلى جانب رسول الله (ﷺ) – فقال بعضهم : يا رسول الله : بئس المرء كان ، وإن كان لفظاً غليظاً فأثنوا عليه شراً فقال رسول الله (ﷺ) أنت بالذي تقول فقال الرجل الله أعلم بالسرائر فأما الذي بدا لنا منه فذلك فقال رسول الله (ﷺ) : وجبت ، قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب صدق رسول الله (ﷺ) ثم قرأ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ ، قال الحاكم هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه. (١)

وروى الإمام البخاري عن أبي الأسود أنه قال : أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض فهم يموتون موتاً ذريعاً فجلست إلى عمر بن الخطابﷺ فمرت به جنازة فأثنى علي صاحبها خيراً فقال :وجبت ثم مر بأخرى فأثني عليها شراً ، فقال عمر : وجبت فقال أبو الأسود : وما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال قلت كما قال رسول الله (ﷺ) أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة قال فقلنا وثلاثة ؟ قال فقال : "وثلاثة" قال فقلنا : واثنان ؟ قال : "واثنان" ثم لم نسأله عن الواحد.(٢)

وعن عائشة (رضى الله عنها) أن النبي (ﷺ) : قال : "ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه"(٣) وعن ابن عباس (رضى الله عنهما) : أن النبي (ﷺ) قال : "ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً إلا شفعهم الله فيه".(٤)

---

(١) رواه الحاكم ١ / ٣٧٧ كتاب الجنائز ط دار الفكر ، وروى المعنى مع اختلاف فى الألفاظ فى البخاري عن أنس بن مالك ، كتاب الجنائز باب ثناء الناس على الميت ٢ / ١٢١

(٢) رواه البخاري ، كتاب الجنائز باب ثناء الناس على الميت ٢ / ١٢٢ ط الشعب .

(٣) (٣) رواهما مسلم فى كتاب الجنائز ، باب من صلي عليه مائة شفعوا ومن صلى عليه اربعون شفعوا فيه .

فهذه الأحاديث المتقدمة صريحة فى صحة شهادة أمة محمد (ﷺ) وصريحة فى بيان منزلتها عند الله تعالى وأنها سيدة الأمم وأنْ شهادتها لها وزنها ولها قيمتها عند الله تعالى.

وأما منزلة أمة النبي (ﷺ) ومكانتها يوم القيامة فتتمثل في الآتي :

١- أمة النبي (ﷺ) أمة مرحومة يوم القيامة يبين ذلك حديث أنس (رضي الله عنه) فيما يرويه ابن ماجه أن رسول الله (ﷺ) قال : "إن هذه الأمة أمة مرحومة عذابها بأيديها فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من المسلمين رجل من المشركين فيقال هذا فداؤك من النار"[١] وعن أبي موسي (رضي الله عنه) قال : قال رسول (ﷺ) : "إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فكاكك من النار"[٢]

٢- أمة النبي (ﷺ) وإن كانت آخر الأمم ظهوراً إلا أنهم أسبق الأمم يوم القيامة روى البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) : "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا"[٣]

٣- أن الجنة حرمت على الأنبياء حتى يدخلها نبينا (ﷺ) وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمته وقد أورد ابن كثير عن الدارقطني عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) : "إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتى"[٤]

---

(١) رواه ابن ماجه ٢ / ١٤٣٤ ، وصححه الألباني فى صحيح الجامع برقم ٢٢٦١

(٢) مسلم كتاب التوبة باب يجعل لكل مسلم فداء من النار من الكفار

(٣) البخاري كتاب الجمعة باب فرض الجمعة .

(٤) ابن كثير ٣٩٦/١ وقال الالباني رواه ابن النجار عن عمر ضعيف . انظر ضعيف الجامع برقم ١٤٢٨ ، ص ٢٠٦ .

٤- أمة النبي (ﷺ) أكثر أهل الجنة يوم القيامة روى مسلم عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال : كنا مع رسول الله (ﷺ) في قبة نحواً من أربعين رجلاً فقال (ﷺ) أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة قال قلنا نعم ، فقال : أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة فقلنا نعم ، فقال : والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وذاك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر"[١] ، وعن بريدة بن حصيب (رضى الله عنهما) أن رسول الله (ﷺ) قال : أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم ، قال الترمذى هذا حديث غريب ".[٢]

وقد عقد النووي فى شرح مسلم باباً بعنوان باب دعاء النبي (ﷺ) لأمته وبكائه شفقة عليهم ثم ساق فى هذا الباب حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (رضى الله عنهما) أن النبي (ﷺ) : تلا قوله تعالى فى إبراهيم : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ [٣]وقال عيسى عليه السلام : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٤] فرفع يديه وقال : "اللهم أمتى أمتى ، وبكى" فقال الله عز وجل يا جبريل : اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل (عليه السلام): فسأله فأخبره رسول الله (ﷺ) بما قال وهو أعلم ، فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك ، قال النووي فى شرح هذا الحديث (هذا الحديث مشتمل على أنواع من الفوائد منها : بيان كمال شفقة النبي (ﷺ) على أمته واعتنائه بمصالحهم واهتمامه بأمرهم ومنها البشارة العظيمة لهذه

---

(١) مسلم كتاب الإيمان باب قول النبي (ﷺ) إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة.

(٢) صححه الألباني فى صحيح الجامع برقم ٢٥٢٦ ، وقال رواه الترمذي والبيهقي وابن حبان والحاكم وأحمد .

(٣) سورة إبراهيم الآية :٣٦ .

(٤) سورة المائدة الآية : ١١٨ .

الأمة زادها الله شرفاً بما وعدها الله تعالى بقوله تعالى سنرضيك فـي أمتـك ولا نسوءك وهذا من أرجى الأحاديث لهذه الأمة أو أرجاها ومنها بيان عظم منزلـة النبي (ﷺ) عند الله تعالى وعظيم لطفه سبحانه به (ﷺ) ، والحكمة فـي إرسـال جبريل لسؤاله (ﷺ) إظهار شرف النبي (ﷺ) وأنه بالمحل الأعلى وهـذا الحـديث موافق لقوله عز وجل : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[1] وأما قوله "ولا نسوءك" فقال صاحب التحرير : هو تأكيد للمعنى أى لا نحزنك لأن الإرضاء قد يحصل فى حق البعض بالعفو عنهم ويدخل الباقى النار فقال تعالى نرضيك ولا ندخل عليـك حزناً بل ننجي الجميع والله أعلم".[2]

صحة شهادة أمة النبي (ﷺ) على الأمم يوم القيامة :

وشهادة أمة نبينا ورسولنا محمد (ﷺ) على الناس يوم القيامة وقبول الله لها ثابتة بنص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . فكما خص الله نبي هـذه الأمة محمداً (ﷺ) بالشهادة على الأنبياء السابقين أيضـا خـص الله أمتـه (ﷺ) بالشهادة على جميع الأمم ، قال تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاء شَهِيداً﴾[3] ، وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال : قـال لى رسول الله (ﷺ) "اقرأ علىَّ فقلت : يا رسول الله : أقرأ عليك وعليـك أنـزل ، قال: نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت سورة النساء : حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاء شَهِيداً﴾ فقال : حسبك

---

(١) سورة الضحى آية : ٥ .

(٢) مسلم ، كتاب الإيمان باب دعاء النبي (ﷺ) لأمته وبكائه شفقة عليهم . انظـر شـرح النـووي ٣ / ٧٩ ط مكتبة النهضة الإسلامية .

(٣) سورة النساء آية رقم (٤١) .

وإذا عيناه تذرفان"[1] ، وروي البخاري عن أبي سعيد الخدري (ﷺ) قال : قال رسول الله (ﷺ) : "يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يا رب ، فيقول : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما آتانا من نذير ، فيقول : من يشهد لك ، فيقول محمد وأمته ، فيشهدون أنه قد بلغ ، قال : فذاك قوله : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾[2]

قال القرطبي : (وذكر هذا الحديث "أى الحديث السابق المروى في البخاري" ابن المبارك بمعناه وفيه : فتقول تلك الأمم كيف يشهد من لم يدركنا فيقول لهم الرب سبحانه وتعالى : كيف تشهدون على من لم تدركوا ؟ فيقولون : ربنا بعثت إلينا رسولا وأنزلت إلينا عهدك وكتابك وقصصت علينا أنهم قد بلغوا فشهدنا بما عهدت إلينا ، فيقول الرب : صدقوا فذلك قوله عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾.

قال علماؤنا : أنبأنا ربنا سبحانه وتعالى فى كتابه لما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة وتوليه خطير الشهادة على جميع خلقه فجعلنا أولا مكانا وإن كنا آخراً زمانا كما قال ﷺ : نحن الآخرون الأولون). [3]

والأمة الإسلامية فى هذه الشهادة العظيمة والتى لها وزنها وقيمتها ووجاهتها والتى ستكون على رؤوس الأشهاد يوم القيامة إنما تدل على مكانة هذه الأمة وهيمنتها على جميع الشعوب والأمم فكما أن نبيها (ﷺ) شهيد على كل الأنبياء والمرسلين فكذلك أمته ، قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاء﴾ [4]

---

(١) البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى "فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد".

(٢) البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى "وكذلك جعلناكم أمة وسطا".

(٣) القرطبي ١ / ٦٤٥ ، ط دار الغد .

(٤) سورة النحل آية (٨٩) .

ثانياً : خيرية الأمة :

- شرح قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١)

فى هذه الآية الكريمة يخبر الله عز وجل بأن أمة النبي (ﷺ) خير الأمم وأفضلها والآية ناطقة بحمد الله بفضل هذه الأمة وعلو مكانتها وسمو منزلتها متى التزمت وطبقت الشروط التى ذكرتها هذه الآية الكريمة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى :

١- مناسبة الآية لما قبلها :

بعدما أمر الله تعالى المؤمنين بالاعتصام بحبله وذكرهم بنعمته على المؤمنين بتأليف القلوب وأخوة الإسلام وأيضا بعد أن أمرهم بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيَّن فضل المؤمنين المتصفين بهذه الصفات الكريمة والخصال الحميدة وأوضح أنهم خير أمة أخرجت للناس متى تمسكوا والتزموا بشروط الآية الكريمة وهى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى.

٢- المعنى اللغوي والإعراب :

فى قوله تعالى "كنتم" ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : إن "كان" فى الآية تامة والمعنى : وجدتم خير أمة وهى لا تحتاج إلى خبر.

الوجه الثاني: إن "كان" ناقصة : والمعنى كنتم في علم الله أو كنتم في الأمم السابقة ومعنى "كان" حينئذ كما قال الزمخشري: عبارة عن وجود الشئ فى زمان ماض على سبيل الإيهام وليس فيها دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارئ .

---

(١) سورة آل عمران الآية (١١٠) .

فيكون المعني : قدرتم فى علم الله تعالى خير أمة أخرجت للناس".[1]

الوجه الثالث : إن "كان" هنا بمعني : صار أى : تحولتم وصرتم أيها المؤمنون خير أمة وقبل غير ذلك ، والرأى الأول وهو القائل بأن "كان" تامة هو أرجح الآراء لذهاب جمع كثير من المفسرين إلى القول به.[2]

"المعروف" وأصله كما قال القرطبي (كل ما كان معروفاً فعله جميلاً مستحسناً غير مستقبح فى أهل الإيمان بالله ، وإنما سميت طاعة الله معروفا لأنه مما يعرفه أهل الإيمان ، ولا يستنكرون فعله ، والمنكر ما أنكره الله ورأوه قبيحا فعله ولذلك سميت معصية الله منكرا لأن أهل الإيمان بالله يستنكرون فعلها ويستعظمون ركوبها"[3]

٣- البيان والتوضيح :

فى هذه الآية الكريمة يخبر الله عز وجل بأن أمة النبي (ﷺ) خير الأمم وأفضلها والآية ناطقة بحمد الله بفضل هذه الأمة وعلو مكانتها وسمو منزلتها متى التزمت وطبقت الشروط التى ذكرتها هذه الآية الكريمة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى.

فضل أمة النبي (ﷺ) :

فكأن الآية الكريمة تقول للناس جميعا : أمة محمد (ﷺ) خير الأمم والشعوب لأنهم انفع الناس للناس ولهذا قال تعالى ﴿ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ أى : أخرجت لأجلهم ومصلحتهم والتعبير بهذا الأسلوب يوحي بأن هذه الأمة الإسلامية كانت مدخرة لأداء هذه الرسالة العظيمة ، حرسها الله وحفظها ، وهيأها لأداء هذه

---

(١) الكشاف ١ / ٢٠٩ ، دار المعرفة .

(٢) انظر القرطبي والفخر الرازي وأبو السعود وغيرهم.

(٣) تفسير القرطبي ٧ / ١٠٥ ، ط دار المعرفة.

المهمة روى البخاري عن أبي هريرة (ﷺ) ، عنه قال : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فهم خير الناس للناس يأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام. (١)

فضل الأمة وشرفها مستمد من فضل وشرف النبي (ﷺ) :

ولا عجب فى أن يكون هذا الشرف وهذا الفضل لأمته (ﷺ) ونبيها ورسولها قد رفع الله قدره فجعله سيد الأنبياء والمرسلين وحامل لواء الحمد يوم القيامة وخصه بخصائص فاق بها جميع الرسل ، فجعل رسالته ناسخة لجميع الشرائع ، ودعوته عامة لجميع الخلق ، ودينه عاليا على جميع الأديان كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٢)، وقد قال (ﷺ) : "أنا سيد ولد أدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر". (٣)

وروى عن عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) قال : "جلس ناس من أصحاب النبي (ﷺ) يتذاكرون وهم ينتظرون خروج النبي (ﷺ) للصلاة قال فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم : عجبا من كلام موسى كلمه الله تكليما ، وقال آخر : ماذا بأعجب من آدم اصطفاه عليهم وخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته فسلم رسول الله (ﷺ) على أصحابه ثم قال: قد سمعت كلامكم وعجبكم أن إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وأن موسى نجى الله – أى كليمه – وهو كذلك ، وأن عيسى روح الله وكلمته وهو كذلك وأن

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير باب سورة آل عمران ٤٧/٦ ، ط الشعب .

(٢) سورة الصف آية رقم (٩) .

(٣) رواه الترمذي فى كتاب المناقب باب ما جاء فى فضل النبي (ﷺ) حديث رقم ٣٦٩٣ ج ١٠ ، ص ٨٤ ط الفجالة ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن.

أدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يحرك خلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر".[1]

أسباب خيرية هذه الأمة :

وأنت ترى من خلال ما تقدم أن الله تعالى ذكر سببين لجعل هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس فلم تنل هذه الأمة الشرف العظيم لسواد عيونها وإنما نالته بسبب أنها أمة داعية إلى الخير سباقة إلى الإيمان مؤمنة بالرحمن وهذان السببان هما :

السبب الأول : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الفرائض اللازمة على الأمة إذ بترك هذه الفريضة تأثم وتستحق العقوبة الإلهية ، لأن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجعل المعصية تتفشى وتستعلن والمعاصى كالجراثيم تقضى على الأمم وتعوق حضارتها ، وتمنع مسرتها ، وقد بين النبي (ﷺ) أن الأمة متكاملة فى هذا الأمر إذ لا سلامة لجسم الأمة من العيوب والآفات إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال :"مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة أصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفل السفينة إذا أرادوا الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ولو أخذوا على أيديهم نجوا جميعا"[2]

---

(١) رواه الترمذي كتاب المناقب باب ما جاء فى فضل النبي حديث رقم ٣٦٩٥ ، ج ١٠ ص ٨٤ ط الفجالة ، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب.

(٢) البخاري عن النعمان بن بشير كتاب الشركة باب هل يقرع فى القسمة .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صمام الأمن والأمان الذي يحول بين الأمة وبين الوقوع فى المخاطر ، وهما سياج الدين ولا يمكن أن يتحقق بنيان الأمة على الخير والفضيلة إلا بالقيام بهما وقد استحق بنو إسرائيل اللعنة من الله عز وجل فى كتابه من أجل ترك هذا الركن الركين عن عبد الله بن مسعود (ﷺ) قال : قال رسول الله (ﷺ) أن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قرأ (ﷺ) : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾[1] ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً أى ولتحملنه على اتباع الحق حملا – ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم".[2]

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا أهمله العلماء والمصلحون بحيث يصبح المنكر شيئاً عادياً فى المجتمع لا يعترضه ولا يضيق به أحد نزل العذاب على الصالح والطالح وعم العقاب كل طوائف المجتمع قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.[3]

وفى صحيح البخاري ومسلم عن زينب بنت جحش (رضى الله عنها) أنها سألت رسول الله (ﷺ) فقالت له يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم

---

(١) سورة المائدة الآيتان : ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) أبو داود كتاب الملاحم باب الأمر والنهى ٢ / ٤٣٦ ، ط الحلبي.

(٣) سورة الأنفال آية رقم (٢٥) .

إذا كثر الخبث".[1]

وفى سنن الترمذي أن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده"[2]. وذلك أن الصالح بسكوته عن المنكر إنما يكون كالمقر له ولذلك جاء عن جابر ﷺ أن رسول الله (ﷺ) قال : "أوحى الله عز وجل إلى جبريل ﷺ أن اقلب مدينة كذا وكذا بأهلها فقال : يا رب إن فيها عبدك فلان لم يعصك طرفة عين قال فقال : اقلبها عليه وعليهم فإن وجهه لم يتمعر فى ساعة قط".[3]

فإذا أصبح الفساد شيئا عادياً فى المجتمع وأضحى سمة من سماته الأصلية كان على المؤمن إن لم يستطع أن يغير المنكر بيده ولا بلسانه كان عليه أن ينكر بقلبه، وعليه أن يضيق بالمنكر ، ويحاول أن يسد أبوابه ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

قال القرطبي ما ملخصه بعد أن ذكر رواية زينب بنت جحش ــ رضي الله عنها ــ ورواية الترمذي قال "وفى هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر".

قال علماؤنا : فالفتنة إذا عمت هلك الكل وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير ، وإذا لم يتغير وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها روي ابن وهب عن مالك وتهجر الأرض التى يصنع فيها المنكر جهاراً ولا يستقر فيها ، واحتج بصنيع أبي الدرداء ﷺ فى خروجه عن أرض معاوية حين أعلن بالربا فأجاز بيع سقاية الذهب بأكثر من

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج ورواه مسلم كتاب الفتن باب – اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج .

(٢) رواه الترمذي عن أبي بكر الصديق كتاب الفتن باب ما جاء فى نزول العذاب إذا لم يغير المنكر رقم ٢٢٥٧ ، ج ٣٨٨ ، قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح.

(٣) مختصر شعب الإيمان للقزويني الشعبة الثانية والخمسون ٢٢٩ ، ط دار الأنصار .

وزنها .. فإن قيل فقد قال تعالى ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [1] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [2] وهذا يوجب ألا يؤاخذ أحد بذنب أحد ، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب.

فالجواب : أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره فإذا سكت عليه فكلهم عاص هذا بفعله وهذا برضاه ، وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل فانتظم في العقوبة. [3]

أما عن علامات الراضي بالمنكر والمقر له بينها العلامة القاسمي " علامة الرضا بالمنكر عدم التألم من الخلل الذي يقع في الدين بفعل المعاصي ، فلا يتحقق كون الإنسان كارهاً إلا إذا تألم للخلل الذي يقع في الدين كما يتألم ويتوجع لفقد ماله أو ولده فكل من لم يكن بهذه الحالة فهو راضٍ بالمنكر فتعم العقوبة والمصيبة بهذا الاعتبار"[4].

هذا وربما ادعى بعض الواهمين عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما دام مهتدياً مستقيماً على أمر الله لا يضره من ضل إذا اهتدى ولا يضره من غوى إذا رشد وربما تذرع إلى زعمه هذا بقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [5]

ولكن الإمام القرطبي رد هذا الزعم ، وقال في تفسيره للآية الكريمة ما ملخصه : (ظاهر هذه الآية يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليس القيام به بواجب إذا استقام الإنسان وأنه لا يؤاخذ بذنب غيره لولا ما ورد في

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٦٤ .

(٢) سورة المدثر الآية : ٣٨ .

(٣) القرطبي ٤ / ٢٩١٧ ط دار الفكر .

(٤) القاسمي ٨ / ٢٩٧٧ .

(٥) سورة المائدة الآية (١٠٥)

تفسيرها من السنة وأقاويل الصحابة والتابعين على ما نذكره بحول الله تعالى فقد روي أبو داود والترمذي وغيرهما عن قيس قال : خطبنا أبو بكر الصديق (ﷺ) فقال إنكم تقرءون هذه الآية وتتناولونها على غير تأويلها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده "قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح[1] ، وروي أبو داود ، والترمذي وغيرهما عن أبي أمية الشعباني قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع بهذه الآية فقال أية آية ؟ قلت : قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيرا سألت عنها رسول الله (ﷺ) فقال : "بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة فإن من وراءكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم "وروي عن ابن مسعود (ﷺ) أنه قال : ليس هذا بزمان هذه الآية قولوا الحق ما قبل منكم وإذا رد عليكم فعليكم أنفسكم ، وقيل لابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ فى بعض أوقات الفتن : لما تركت القول فى هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه؟ فقال إن رسول الله (ﷺ) قال لنا : "ليبلغ الشاهد الغائب ونحن شهدنا ويلزمنا أن نبلغكم وسيأتي زمان إذا قيل فيه الحق لم يقبل. وفى رواية عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ بعد قوله ليبلغ الشاهد الغائب فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم ، وقال ابن المبارك قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾خطاب لجميع المؤمنين

---

(١) الترمذي كتاب الفتن باب ما جاء فى نزول العذاب إذا لم يغير المنكر.

أى : عليكم أهل دينكم كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [1] فكأنه قال : ليأمر بعضكم بعضا ولينه بعضكم بعضا فهو دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يضركم ضلال المشركين والمنافقين وأهل الكتاب.

وقال سعيد بن المسيب : معنى الآية الكريمة: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر".[2]

إلى غير ذلك من النصوص والآثار التى يتبين منها وجوب هذه الفريضة على الأمة الإسلامية والتى مجالها المتسع غير هذا الموضع.

والواضح من خلال الآية الكريمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ أن خيرية الأمة الإسلامية مشروط بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدوام على ذلك لكن واقع الأمة الإسلامية – للأسف الشديد – يقول غير هذا فلقد بلغ الهوان والضعف بالأمة الإسلامية مبلغاً هابطاً للغاية فتخلت عن رسالتها من تبليغ رسالة الإسلام إلى أهل الأرض بالجدية والقوة التى طلبها الإسلام وانتشر الفسوق والعصيان دون نكير من أحد ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

والسبب الثاني : قوله تعالى : ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ أى الإيمان الكامل بكل ما يتطلبه هذا الإيمان فالإيمان بالله يشمل الإيمان بوحدانيته تعالى ، وبجميع أسمائه الحسني وصفاته الأزلية وبالجملة فالإيمان بأن الله متصف بكل كمال وجمال وجلال يليق بذات الله المقدسة وكذلك الإيمان بجميع أنبيائه ورسله وكتبه واليوم الآخر لا تفريق بين كتب الله أو رسله ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ

---

(١) سورة النساء الآية : ٢٩ .

(٢) القرطبي ٣ / ٢٤٣٢ ، ط دار الغد .

آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾[2] وكذلك الإيمان بالملائكة واليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار وميزان إلى غير ذلك من الأمور السمعية التى ورد ذكرها فى القرآن والسنة وكذلك الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره.

وهذا الإيمان بالله هو سر الحياة وروح الوجود فلا قيمة للحياة بدون إيمان بالله تعالى وهو القوة الدافعة للمؤمنين إلى عمل الخير وعمارة الكون ، وهو السر الخفي فى تحويل الحياة من القبح إلى الجمال ومن الشر إلى الخير ومن الضعف إلى القوة ، والإيمان بالله هو السبب الثاني فى اجتباء هذه الأمة واختيارها من قبل الله تعالى لتكون خير أمة أخرجت للناس وهنا يرد سؤال مفاده لم قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان مع أن الإيمان فى الحقيقة مقدم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟

يقول الإمام الرازي ما ملخصه: "والجواب أن الإيمان بالله أمر مشترك فيه بين جميع الأمم المحقة ثم أنه تعالى فضل هذه الأمة على سائر الأمم المحقة فيمتنع أن يكون المؤثر فى حصول هذه الخيرية هو الإيمان الذي هو القدر المشترك بين الكل بل المؤثر فى حصول هذه الزيادة هو كون هذه الأمة أقوى حالاً فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. [3]

ويصح أن يكون السبب فى تقديم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان بالله هو أن الإيمان بالله تعالى هو الباعث في الحقيقة على الأمر

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٥

(٢) سورة النساء الآية (١٥٢)

(٣) مفاتيح الغيب ٢ / ٤٤

بالمعروف والنهى عن المنكر وهو الدافع للمؤمنين على أن يبلغوا رسالات الله ، وأيضا يصح أن يكون السبب كما قال الشيخ رشيد رضا " التعريض بأهل الكتاب الذين كانوا يدعون الإيمان ولا يقومون بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأنهم كانوا فى مجموعهم لا يتناهون عن منكر فعلوه وأخر ذكر الإيمان الذي يدعونه ليترتب عليه أنه غير صحيح لأنه لم يأت بثمر الإيمان الصحيح".[1]

وأيضا يرد هنا سؤال هو : ما الفرق بين خيرية أمة محمد (ﷺ) وبين دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار وبين ما جاء فى شأن بني إسرائيل في الكتاب الكريم من أن الله تعالى فضلهم على العالمين؟

والجواب : أن الله فضلهم على عالمي زمانهم بخلاف خيرية أمة النبي (ﷺ) فهي خيرية مطلقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأيضا التفضيل من وجه لا يلزم التفضيل من جميع الوجوه فتارة يكون فى المفضول من المفضل والمزايا مالا يكون فى الفاضل يقول الألوسي ("وأل" فى "العالمين" للعهد والمراد عالمي زمانهم أو للاستغراق ، والتفضيل من وجه لا يلزم التفضيل من جميع الوجوه فإنه قد يكون للمفضول ما ليس للفاضل وعلى التقديرين لا يلزم تفضيلهم على هذه الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة وأكمل التحية".[2]

وأيضا هناك فارق كبير بين أمة الإسلام وبين كل أمة تدعى أنها أفضل من غيرها هذا الفارق هو أن خيرية أمة محمد (ﷺ) ليست خيرية عنصرية ولا عرقية كدعوى بني إسرائيل ، وأيضا خيرية أمة الإسلام ليست منبثقة من عصبية لجنس أو انتماء لأرض ، إنما هى خيرية أعمال وخيرية مبادئ وسلوك والتزام مبنية على الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولذلك فإن هذه الخيرية ليست حكراً على شعب مخصوص ولا عنصر معين ولا دم ولا أرض دون غيرها إنما هذه الخيرية صفة لكل مسلم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

---

(١) المنار ٤ / ٥٣ ، ط دار الفكر

(٢) الألوسي ٦ / ١٠٥

الآخر والقدر خيره وشره وعمل بمقتضى إيمانه أياً كان جنسه أو لونه أو لغته أو أرضه كما كانت الخيرية صفة ثابتة لبلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي (رضى الله عنهم) .

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم﴾. هذه الجملة ذم لأهل الكتاب وتأنيب لهم بعد أن مدح أمة النبي (ﷺ) وبين أنهم خير أمة أخرجت للناس.

والمعنى : ولو آمن أهل الكتاب بما أنزل على محمد (ﷺ) لكان إيمانهم خيراً لهم ، وأطلق سبحانه وتعالى الخيرية دون تفصيل لتذهب النفس فيها كل مذهب في الرجاء والإشفاق فإن الخيرية لأهل الكتاب إن هم آمنوا بالرسول مطلقة لتشمل خيري الدنيا والآخرة وقد آمن بالرسول (ﷺ) وصدق به بعض أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميم الداري (رضى الله عنهما) .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وهذا من إنصاف القرآن لأهل الكتاب فهم ليسوا جميعاً على درجة واحدة من الكفر بل القليل منهم مؤمن والكثير منهم فاسق وفاجر وقد أثنى القرآن الكريم على المؤمنين منهم فقال في حقهم ﴿ لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالحِينَ﴾ (١) وقال أيضا متحدثاً عن القليل المؤمن منهم والمتصف بالأمانة ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ﴾. (٢)

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد مدح من يستحق المدح منهم وهو قليل من كثير- وهذا القليل هو من آمن وصدق بالرسول (ﷺ) وهذا الأسلوب القرآني الرفيع إنما يعلم المؤمنين أن تكون أحكامهم لا مبالغة فيها ولا تعميم بل يجب أن

---

(١) سورة آل عمران آية (١١٣ - ١١٤)

(٢) سورة آل عمران آية (٧٥) .

يكون حكمهم موضوعياً فلا يغمطون الناس حقوقهم ويجب أن يكونوا عادلين في أحكامهم على الناس وهو أسلوب قرآني رفيع صادق في الحكم على الناس لو اتبعه المسلمون لسعدوا وفازوا في الدنيا والآخرة.

ثالثاً: اجتباء الأمة:

- قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.[1]

١- مناسبة الآية لما قبلها:

قال الشوكاني: (ولما تضمن ما ذكره من أن الأمور ترجع إليه الزجر لعباده عن معاصيه والحض لهم على طاعته صرح بالمقصود فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[2].

وقال صاحب التفسير القرآني ما ملخصه (بدأت السورة بنداء الناس ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ وقد استجاب أناس لهذا النداء فآمنوا بالله وسعوا في مرضاته ثم كانت السورة بعد ذلك دعوة إلى الله وإلى كشف الطريق إليه وإرسال النذير بعد النذير إلى الضالين والمشركين ثم كانت حصيلة هذه النذر هؤلاء المؤمنين الذين دخلوا في دين الله واستجابوا لرسول الله فكان أن

---

(١) سورة الحج الآية (٧٧ - ٧٨).

(٢) فتح القدير للشوكاني ٥٨٨/٣، ط دار المعرفة بيروت.

خصهم الله بخطابه ليثبتوا على الإيمان وليعملوا على طريق الإيمان فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾[1]

٢- المفردات :

أ -﴿اجْتَبَاكُمْ﴾ : الاجتباء : الاصطفاء واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى من العبد وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء ، قال تعالى : "يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب"[2]

ب- ﴿حَرَجٍ﴾ قال الفيروزأبادي ما ملخصه : أصله مجتمع الشجر وتصور منه ضيق ما بينهم فقيل للضيق حرج وللأثم حرج[3] .

ج-﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ قال الراغب الاعتصام التمسك بالشئ ، والعصم الإمساك [4].

٣- التفسير:

هذا نداء للمؤمنين وأمر لهم بالركوع والسجود والمقصود بهما الصلاة وعبر عن الصلاة بهما لشرفهما ولعظيم منزلتهما وكذلك أمر للمؤمنين بعبادة الله تعالى وامتثال أوامره واجتناب جميع مناهيه وهو أمر بالعبادة مطلقا وقوله تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ أمر بفعل كل خير وراء هذه العبادات من الإحسان إلى الناس بالقول والعمل ومن الحكم بين الناس بالعدل ومن أداء الأمانات إلى أهليها إلى غير ذلك مما هو خير وحسن ومعروف وقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إشارة إلى

---

(١) تفسير القرآن للقرآن ١١٠٢/١٧ ، ط دار الفكر .

(٢) المفردات ١ / ٨٨

(٣) بصائر ذوى التمييز ٢ / ٤٤٧ ، ط المجلس الأعلي للشئون الإسلامية .

(٤) المفردات ٣ / ٣٣٧ ، ط الجمهورية .

أن هذه الأعمال كلها – وعلى رأسها الإيمان بالله – هى ما ترجي به النجاة من عذاب الله والفوز برضوانه ، وهى أيضا إشارة إلى الفلاح المحقق لمن يلتزم بهذه الأشياء فكأنه سبحانه قال : افعلوا كذا وكذا تفلحوا وقوله تعالى ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ عطف على الأمر بالركوع والسجود وعبادة الله وفعل الخير والجهاد وإن كان داخلا فى العبادة وفعل الخير إلا أنه سبحانه خصه بالذكر لما له من منزلة رفيعة ومكانة عالية بين العبادات لابد فيه من تضحية بأغلي ما يملكه الإنسان من نفس ومال .

وقوله ﴿حَقَّ جِهَادِهِ﴾ تأكيد لهذا الجهاد وبيان للصفة التى ينبغي أن يكون عليها وهو أن يكون خالصا لوجه الله وفى سبيل الله لا يبتغي به غير وجه الله وفى تعدية الجهاد بحرف الجر " فى" إلى لفظ الله وإلى سبيل الله كما هى عادة القرآن ما يشير إلى منزلة الجهاد وأنه لله وحده ومن أجل ذاته ، فحرف الجر هنا للسببية ولفظ "الجهاد" لفظ شامل عام يشمل الجهاد فى سبيل الله بالسيف ويشمل جهاد النفس والشيطان ويشمل الجهاد فى الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو عام يشمل جميع هذه الأنواع قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [1] .

وقوله تعالى ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى اختاركم لدينه ونصرته قال القاسمي : (وفيه تنبيه على المقتضى للجهاد والداعى إليه لأن المختار إنما يختار من يقوم بخدمته ولأن من قربه العظيم يلزمه دفع أعدائه ومجاهدة نفسه بما لا يرضاه) [2].

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٦٩) .

(٢) القاسمي ، ٧ / ٢٧٩ ط دار الكتب العلمية .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يعني من مشقة أو ضيق فى جميع الأمور فالتعريف في الدين للاستغراق وهو أصل القاعدة الأصولية القائلة "المشقة تجلب التيسير"[1] .

ورفع الحرج عن الأمة الإسلامية ملحوظ ومفهوم فى جميع جوانب الشريعة الغراء ففى باب الجهاد مثلا رفع الله الحرج عن الضعفاء وأصحاب العاهات ونحوهم ، قال تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [2]

وكذلك فى فرائض الإسلام من صلاة وحج وصيام وكل ذلك فى كل شرائع الإسلام وقد قال (ﷺ) : "إذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه كله وإذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم"[3] إلى غير ذلك من الأحاديث التى تبين يسر الإسلام وسعته وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [4]، وكقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [5]

وما شرع الله التوبة والكفارات والأروش والديات إلا بسبب رفع الحرج عن الأمة وقوله تعالى : ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ الملة هى الطريقة والشريعة أى الزموا ملة أبيكم إبراهيم وإنما كان إبراهيم أباً للمسلمين لأنه أبو رسول الله (ﷺ) ولأن إبراهيم وولده إسماعيل دعوا الله تعالى بذلك ، قال القرآن : " ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا

---

(١) الأشباه والنظائر لابن نجيم ج١ ص٧٥ ط : دار الكتب العلمية ، بيروت،لبنان ١٤٠٠هـ=١٩٨٠م.

(٢) سورة التوبة الآية (٩١) .

(٣) البخاري ، فى كتاب الاعتصام ، مسلم : كتاب الفضائل ، فى كتاب الحج . النسائي : كتاب الحج باب ١ ، ابن ماجه : فى المقدمة باب (١) .

(٤) سورة البقرة الآية (١٨٥) .

(٥) سورة النساء الآية (٢٨) .

مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [1] ، وقوله تعالى : ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ الضمير إما أن يرجع إلى إبراهيم ﷺ ، ورجوعه إلى الله تعالى قول أكثر المفسرين وهو الراجح ، قال النحاس : (وهذا القول – أى برجوع الضمير إلى إبراهيم – مخالف لقول عظماء الأمة). [2]

قال أبو السعود : (ويؤيده أنه قرئ الله سماكم) [3] ومما يقوي أن للضمير راجع إلى الله تعالى الحديث الطويل الذي ساقه ابن كثير وقد عزاه لأحمد فى المسند عن الحارث الأشعري وفيه : (فادعو المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله) [4] وقوله تعالى : ﴿وَفِي هَذَا﴾ المقصود به القرآن وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [5] وقوله تعالى : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [6] ، وقوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ ﴾ ومعنى شهادة الرسول (ﷺ) على الأمة أى أنه يشهد بأنه قد بلغ الأمة رسالة ربه ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ ﴾ أى بتبليغ الرسل والأنبياء السابقين لأممهم وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ﴾ والمعنى وإذ خصكم الله بهذه الكرامة فاعبدوه وأنفقوا مما آتاكم بالإحسان إلى الفقراء والمساكين وخص الله الصلاة والزكاة بالذكر لفضلهما وأهميتهما فى الإسلام ،﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أى استمسكوا بدين الله وشرعه ولا

---

(١) سورة البقرة الآية (١٢٨) .

(٢) القرطبي / ٤٦٣٤ ، ط دار الغد .

(٣) أبو السعود ٣/ ٣٩٩ ، ط دار الكتب العلمية.

(٤) ابن كثير ١ / ٥٨ ، ط الحلبي .

(٥) سورة آل عمران الآية (٦٤) .

(٦) سورة النمل الآية (٩١) .

تطلبوا العون إلا منه سبحانه وتعالى ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أى هو ناصركم ومتولى أموركم ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ أى لا مثيل له فى الولاية والنصرة بل ولا ولى ولا نصير فى الحقيقة إلا هو عز وجل .

وقفة مع هذه الآيات :

الإسلام بمعنى إسلام الوجه لله وإخلاص العبادة له وحده وطاعته فى السر والعلن هو دين جميع الأنبياء والمرسلين فهذا نوح ﷺ قال القرآن كما حكى : ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١) ، أى المنقادين لأمره المتبعين لهديه المستسلمين لقضائه وقدره وهذا خليل الرحمن إبراهيم ﷺ أعلن إسلامه وأمر أبناءه بالإسلام فقال القرآن عنه ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ* وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٢) ، وهذا يوسف ﷺ دعا ربه أن يميته مسلماً فقال : ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٣)

وهذا موسى ﷺ طلب من أتباعه أن يكونوا مسلمين فاستجابوا له ودعوا ربهم أن يتوفاهم مسلمين ، قال القرآن : ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (٤) ثم قالوا بعد ذلك :﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾(٥) وهذا سليمان ﷺ طلب من بلقيس وقومها إن يسلموا ، قال القرآن

---

(١) سورة يونس الآية (٧٢) .

(٢) (٣) سورة البقرة الآية (١٣١-١٣٢) .

(٣) سورة يوسف الآية (١٠١) .

(٤) سورة يونس الآية (٨٤) .

(٥) سورة الأعراف الآية (١٢٦) .

﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [1] إلى أن قالت بلقيس ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.[2]

وقد أعلن حواريو عيسى عليه السلام إسلامهم بين يدي عيسى قال القرآن : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [3] ، وقد أعلن الجن أيضاً أن منهم مسلمين فقال القرآن : " ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [4]

لقد وضح القرآن الكريم أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية كلها فقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [5] وهو الدين المعتبر عند الله والمعتد به قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ [6] ، وقد رفض الله قبول أى دين من البشر إلا الإسلام ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [7] وقد طلب الله من عباده المؤمنين بل وأمرهم أن يظلوا متمسكين بالإسلام حتى الموت ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [8]

---

(١) سورة النمل الآية (٣١) .
(٢) سورة النمل الآية (٤٤) .
(٣) سورة آل عمران الآية (٥٢) .
(٤) سورة الجن الآية (١٤-١٥) .
(٥) سورة المائدة الآية (٣) .
(٦) سورة آل عمران الآية (١٩) .
(٧) سورة آل عمران الآية (٨٥) .
(٨) سورة آل عمران الآية (١٠٢) .

الباب الثاني
مشاركة النبي (ﷺ) الأمة في الفضل والمنة

وأمة النبي (ﷺ) أمة لها منزلتها ومكانتها عند الله تعالى اختارها الله تعالى واصطفاها من بين سائر الأمم لتكون خير أمة أخرجت للناس قال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.(١)

وهى الأمة الوسط أى : أعدل الأمم وأخيرهم قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (٢)

وإذا كان شرف التابع يتبع شرف المتبوع فإن متبوع الأمة هو أفضل الأنبياء وأعظم المرسلين ، وأحب عباد الله إلى الله سيدنا ومولانا محمد (ﷺ) الذي وهبه الله ومنحه وأعطاه وما منعه ، وشرح صدره ووضع وزره ، ورفع له ذكره ، وغفر له ذنبه ما تقدم منه وما تأخر ، وكان من بركة هذا النبي الكريم وعظيم منزلته عند الله تعالي أن امتن على أهل الإيمان من أمته ، وأعطاهم ما أعطاه ، ورهبهم ما وهبه وهاأنذا – بعون الله وفضله – أبين عن بعض ذلك ، وأكشف الستار عنه داعياً المولى عز وجل أن يجعلنا من أتباعه (ﷺ) المخلصين والمحبين له والمؤمنين به وأن يشفعه فينا يوم الزحام فأقول وبالله التوفيق:

١- شهادة النبي (ﷺ) وشهادة أمته على الأمم :

يقول الله تعالى فى حق نبيه (ﷺ) ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً﴾ (٣) ويقول تعالى ذكره في آية أخرى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٣

(٣) سورة النساء آية ٤١

عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء ﴾ [1] فرسولنا (ﷺ) بمقتضى هذه الآية شهيد على كل الأنبياء والرسل من قبله ، وقد امتن الله تعالى على أهل الإيمان من أمته بهذه المنة العظيمة بأن جعل شهادتها معتبرة عنده ومقبولة لديه على الأمم فقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [2] وفى السنة الكثير من الأحاديث التى تشهد لتلك المنقبة لأمة محمد (ﷺ) من هذه الأحاديث ما يفيد أنها معتبرة فى الآخرة ومنها ما يفيد أنها معتبرة فى الدنيا ومن الأحاديث التى تشهد لصحة شهادة هذه الأمة فى الدنيا – ما أورده ابن ماجة فيما يرويه عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي عن أبيه قال : سمعت رسول الله (ﷺ) بالبناوة يقول: "يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم قالوا بم يا رسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السئ أنتم شهداء الله فى الأرض"[3]

ومما يشهد علىَ صحة شهادة أمة محمد (ﷺ) على الأمم يوم القيامة ما أورده البخاري عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) يدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يا رب فيقول : هل بلغت فيقول نعم فيقول لأمته: هل بلغكم ، فيقولون ما أتانا من نذير فيقول له من يشهد لك ؟ فيقول محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ فذلك قوله ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [4]

فإنك ترى – رحمك الله – أن عطاء الله تعالىٰ لنبيه (ﷺ) فى شهادته على الأنبياء والمرسلين قد امتن الله به على أمته بشهادتها على الأمم السابقة وقد توسعنا فى ذلك فى الباب الأول من هذا الكتاب.

---

(١) سورة النحل آية ١٨٩

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٣

(٣) ابن ماجة ١٤١١/٢ كتاب الزهد باب الثناء الحسن ط / العلمية.

(٤) البخاري كتاب التفسير باب قوله "وكذلك جعلناكم أمة وسطا" ط / الشعب

٢- وعيد من يخالف أمره (ﷺ) وكذلك من يخالف أمر أهل الإيمان من أمته :

قال تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾ (١)

قال الراغب : (الشقاق : المخالفة ، وكونك فى شق غير شق صاحبك ، أومن شق العصا بينك وبينه قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ أى: مخالفة ﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى صار فى شق غير شق أوليائه ونحوه قوله ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ (٢)

والمعنى : ومن يخالف الرسول (ﷺ) فيما جاء به ،وكان فى شق والرسول (ﷺ) فى شق آخر وذلك بعد أن تبين له الهدي وظهرت علامات الحق والرشاد ويسلك طريقا مخالفا لطريق المؤمنين بعيدا عن منهجهم السوى وطريقهم الصحيح نوله ما تولى وسيكون مصيره يوم القيامة جهنم وهى بئس المصير ، وهذه الآية الشريفة عند جمهور العلماء دليل حجية الإجماع.

قال الرازي : (روى أن الشافعي – سئل عن آية فى كتاب الله تعالى تدل على أن الإجماع حجة فقرأ القرآن ثلاثمائة مرة حتى وجد هذه الآية وتقرير الاستدلال أن اتباع غير سبيل المؤمنين حرام ، فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين واجبا). (٣)

والآية الكريمة تنزلت بسبب ابن أبيرق السارق لأن النبي (ﷺ) كان قد حكم بالقطع فارتد وهرب إلى مكة .

---

(١) سورة النساء آية ١١٥

(٢) المفردات للراغب ٦ ج ١ ط الجمهورية

(٣) تفسير الفخر الرازي ٥/٤٤٥ ط دار الغد .

قال القرطبي : (قال العلماء أنزلت بسبب ابن أبيرق لما حكم النبـــي (ﷺ) بالقطع وهرب إلى مكة وارتد ، قال سعيد بن جبير : لما صار إلى مكة نقب بيتـــاً بمكة فلحقه المشركون فقتلوه فأنزل الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾.

قال القرطبي : والآية وإن نزلت فى سارق الدرع أو غيره فهي عامة فى كل من خالف طريق المسلمين). [1]

وبالجملة فالآية الشريفة عامة تشمل كل من انحرف عن هداية الله تعالى، وخالف أمر الرسول ﷺ فيما جاء به عن ربه ، وكذلك فى كل من ســـلك طريقـــا ملتويا غير طريق المؤمنين واتبع منهاجا غير منهاجهم فصار فى حزب الضلالة واستحق الخلود فى نار جهنم.

(١) تفسير القرطبي ٤٠٧/٢ ، ط دار الغد .

٢- السكينة تنزل على النبي (ﷺ) وعلى أهل الإيمان من أمته :

يقول الله تعالى فى حق نبيه (ﷺ) ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ ﴾ (١)

السكينة قال فى القاموس (السكينة : الطمأنينه قال تعالى فِيهِ ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾) (٢).

وهذه منة كبرى ونعمة عظمي من الله تعالى على نبيه (ﷺ) وعلى أهل الإيمان معه وهذه الآية تتحدث عن غزوة حنين ، وما كان فيها ، وعن تأييد الله لنبيه والمسلمين معه ، وخلاصة هذه الغزوة أن المسلمين كانوا فى غزوة حنين عدداً كبيراً يزيد على اثني عشر ألف مقاتل ، وكان عدد عدوهم لا يزيد على أربعة آلاف فدخل الغرور والزهو على بعض المسلمين وقالوا : لن نغلب اليوم من قلة فأراهم الله الهزيمة حتى ولوا الأدبار منهزمين ولا يثبت منهم فى المعركة إلا القليل مع رسول الله (ﷺ) الذي يركب على بغلته وأخذ يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

يقول الله تعالى مذكرا لهم بهذا اليوم ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (٣)

يقول ابن كثير ما ملخصه (هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة، وإن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم وينبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أم كثر فإنهم يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلكم

---

(١) سورة التوبة آية ٢٦

(٢) القاموس المحيط ١٥٥ ، ط مؤسسة الرسالة

(٣) سورة التوبة آية رقم ٢٥

عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم ، وكانت الغزوة فى شوال سنة ثمانية من الهجرة بعد فتح مكة ، وكان رسول الله (ﷺ) قد فرغ من الفتح وأذعن له أهلها وأطلقهم رسول الله (ﷺ) وكان قد بلغه (ﷺ) أن هوازن وثقيف وبنو سعد بن بكر وبنو حشمة قد اجتمعوا ليقاتلوه فخرج الرسول (ﷺ) فى جيشه الذي فتح به مكة وكان عشرة آلاف مقاتل بالإضافة إلى من أسلم من أهل مكة ، فسار النبي (ﷺ) بمن معه من المسلمين حتى التقى بأعدائه عند حنين – وهو واد بين مكة والمدينة فكانت فيه الواقعة فى أول النهار عند غلس الصبح ، وقد كانت هوازن قد كمنت فى هذا الوادى ، فلما تلاقي حملة هوازن على المسلمين حملة رجل واحد فعند ذلك ولي المسلمون الأدبار ، وثبت رسول الله (ﷺ) وثبت معه من أصحابه قرابة مائة وكان يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وبعد ذلك أمر الرسول (ﷺ) عمه العباس وكان جهوري الصوت أن ينادي بأعلي صوته يا أصحاب الشجرة – أى شجرة بيعة الرضوان التى بايع فيها المسلمون الرسول (ﷺ) تحتها ألا يفروا ، فجعل ينادي به ، فجعلوا يقولون : لبيك لبيك فتراجع الناس والتفوا حول رسول الله (ﷺ) فأمرهم أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من تراب ثم رمي بها القوم فما بقي إنسان إلا أصابه منها فى عينيه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسري مجندلة بين يدي رسول الله (ﷺ).[1]

وقد كانت غنائم المسلمين يوم حنين كثيرة جدا موضع تفصيلها كتب التاريخ والسيرة وقد أنزل الله تعالى على نبيه (ﷺ) وعلى المؤمنين معه السكينة من عنده وهى الطمأنينة والأمن والرحمة ، فسكنت قلوبهم واطمأنت يقول أستاذنا الدكتور / محمد السيد طنطاوي (وقد كان الرسول (ﷺ) فى حاجة إلى هذه السكينة

---

(١) تفسير ابن كثير ٣٤٣/٢ ، ط الحلبي .

لأنه مع شجاعته وثباته ووقوفه فى وجه الأعداء كالطود الأشم أصابه الحزن والأسى لفرار هذا العدد الكبير من أصحابه عنه ، وكان المؤمنون الذي ثبتوا حوله فى حاجة إلى هذه السكينة ليزدادوا ثباتا وإيمانا على إيمانهم وكان الذين فروا فى حاجة إلى هذه السكينة ليعود إليهم ثباتهم فيقبلون على قتل أعدائهم بعد أن دعاهم رسولهم (ﷺ) إلى ذلك).[1]

ومن العجيب فى إنزال هذه السكينة أن الله تعالى بين فى الآية التى معنا أن السكينة نزلت على نبينا (ﷺ) وعلى المؤمنين ثم إننا نجد فى آية أخرى أن السكينة أنزلها الله على رسوله فقط دون المؤمنين ، قال تعالى﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [2]

وفى آية ثالثة خصت السكينة بالنزول على المؤمنين فقط قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [3]

وفى هذا الدليل الناصع والبرهان القاطع على علو منزلة هذه الأمة عند الله تعالى ورفعة مرتبتها وسمو مكانتها .

٤- مشاركة الأمة لرسول الله (ﷺ) فى الجهاد لإقامة الدين :

يقول الله تعالى ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [4]

---

(١) التفسير الوسيط – التوبة ٩٣ ط السعادة.

(٢) سورة التوبة آية ٤٠

(٣) سورة الفتح آية ٤

(٤) سورة التوبة آية ٨٨ ، ٨٩

وهاتان الآيتان الشريفتان مدح للرسول الله (ﷺ) – والمؤمنين معه وثناء عليهم بأنهم جاهدوا فى سبيل الله والدعوة إلى الإسلام بكل ما يملكون من مال ونفس فجعل الله جزاءهم كبيراً وعظيماً فى الدنيا والآخرة .

يقول الفخر الرازي فى مناسبة الآية لما قبلها (اعلم أنه تعالى لما شرح حال المنافقين فى الفرار عن الجهاد بين أن حال الرسول والذين آمنوا معه بالضد منه حيث بذلوا المال والنفس فى طلب رضوان الله والتقرب إليه). (١)

والمعنى لكن الرسول والذين صدقوا معه بالله قد بذلوا أموالهم وأرواحهم إرضاء لله وإعلاء لكلمته أولئك لهم وحدهم كل خير فى الدنيا من العز والنصرة والعمل الصالح وهم وحدهم الفائزون ، هذا بخلاف ما أعده الله لهم فى الآخرة من الجنة التى فيها النعيم المقيم وهذه الجنة تجرى من تحت ثمارها وأشجارها ومساكنها الأنهار خالدين فى تلك الجنات خلوداً أبديا .

واعلم أن الله تعالى لما وصف الرسول والمؤمنين معه بالمسارعة إلى الجهاد كافأهم الله تعالى بفوائد ومنافع ثلاث .

يقول الفخر الرازي (أولها : قال تعالى : ﴿وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ ولفظ الخيرات يتناول منافع الدارين لأجل أن اللفظ مطلق ، وقيل الخيرات : الحور لقوله تعالى. ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ ثانيهما : قوله تعالى : "أولئك هم المفلحون" فقوله تعالى : "لهم الخيرات" المراد منها الثواب وقوله ﴿وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المراد منه التخلص من العقاب والعذاب ثالثهما : قوله تعالى ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يحتمل أن تكون هذه الجنات كالتفسير للخيرات والفلاح ، ويحتمل أن تحمل تلك الخيرات والفلاح على منافع الدنيا مثل الغزو والكرامة

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٢٩/٨ ، ط دار الغد

والثروة والقدرة والغلبة وتحمل الجنات على ثواب الآخرة. [1]

وقد استحق المؤمنون هذه الدرجة الكبيرة وتلك المنزلة الرفيعة وكانوا أهلاً لأن يكونوا مع رسول الله (ﷺ) فى الجنة لأنهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وإعلاء كلمة الله عز وجل ، والحديث عن الجهاد حديث طويل وله صور متعددة نكتفي منه بقوله تعالي حاثا على الجهاد ومحرضاً المؤمنين على القتال قال تعالى : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [2] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [3] ، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. [4]

أما السنة النبوية المطهرة فالأحاديث كثيرة ومتواترة منها ما رواه أبو هريرة (ﷺ) قال قال رسول الله (ﷺ) "تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرج إلا جهادا فى سبيلي وإيمانا بي وتصديقاً برسولي فهو على ضامن" أى ذو ضمان بقوله﴿ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ، إن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة والذي نفس محمد بيده ما كلم" أى حرج "يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئة يوم كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذي نفس محمد بيده أولا

---

(١) نفس المرجع السابق

(٢) سورة النساء آية ٧٤

(٣) سورة التوبة آية ١١١

(٤) سورة النحل آية ١١٠

أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا ولكن لا أجد سعة فيتبعوني ولا تطيب أنفسهم فيتخلفوا بعدي ، والذي نفس محمد بيده وددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل.[1]

وروى البخاري فيما جاء عن رسول الله (ﷺ) قال : "إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله المجاهدين فى سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط وأعلي الجنة وفوق عرش الرحمن ومنه تنفجر أنهار الجنة".[2]

وجعل النبي (ﷺ) منزله المجاهد فى سبيل الله متساوية بمنزلة القائم الليل الصائم النهار المقيم على طاعة الله عز وجل أورد البخاري فيما يرويه عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ): "مثل المجاهد فى سبيل الله والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد فى سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالما مع أجر وغنيمة"[3] إلى غير ذلك مما ورد عن أفضل الجهاد ومنزلة المجاهدين ، والله أعلم .

٥- التأييد من الله تعالى للنبي والأمة :

قال تعالى مخاطبا نبيه ورسوله محمداً (ﷺ) وممتناً عليه ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.[4]

---

(١) رواه مسلم باب الترتيب فى الجهاد وفضله فى سبيل الله ١٤٩٥/٣، والمسند لابن حنبل ٢٣١/٢ ، ٤٨٤

(٢) البخاري باب الجهاد ١٩/٤ ، ط الشعب .

(٣) البخاري كتاب الجهاد باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله.

(٤) سورة الأنفال آية ٦٣ .

وهذه نعمة ظاهرة من الله على نبيه (ﷺ) وفضل كبير عليه ، وكان فضل الله عليه كبيراً وعظيماً ، ومن مظاهر هذا الفضل : أن الله أيده بنصره وأيده كذلك بالمؤمنين بأن حبب الله الإيمان إلى قلوب أصحابه وزينه فى قلوبهم وجعل منهم قوة قوية موحدة فصاروا جميعاً كالنفس الواحدة بعد أن كانوا متنازعين متفرقين متقاتلين قال صاحب الكشاف (التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله (ﷺ) من الآيات الباهرة لأن العرب – لما فيهم من الحمية والعصبية والانطواء على الضغينة لا يكاد يأتلف منهم قلبان ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله (ﷺ) واتحدوا وأنشأوا يرمون عن قوس واحدة وذلك لما نظم الله من ألفتهم وجمع من كلمتهم وأحدث بينهم من التحاب والتواد وأماط عنهم من التباغض والتماقت وكلفهم من الحب في الله والبغض فى الله ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب فهو يقلبها كيف يشاء ويضع فيها ما يريد) [1].

والآية الشريفة تتحدث عن تأييد الله لرسوله وللمؤمنين معه بالنصر الباهر يوم بدر فقتل المسلمون رؤوس الكفر والشرك وأسروا كبراءهم وزعماءهم.

قال الرازي (كما قال ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فأي حاجة مع نصره إلى المؤمنين حتى قال : ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ، قلنا : التأييد ليس إلا من الله لكنه على قسمين أحدهما ما يحصل منه غير واسطة أسباب معلومة معتادة ، والثاني ما يحصل بواسطة أسباب معلومة فالأول هو المراد من قوله﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾)[2] وهذا التأييد من الله لنبيه (ﷺ) كان متمثلاً في تسديد الله له ، ونصره إياه في كل المواقف ، وإظهاره على أعدائه ومناوئيه ، وأيضاً في أن سخر الله له قلوب عباده فأطاعوه ووقروه وعظموه وأحبوه حتى كان (ﷺ) أحب إلى الواحد فيهم من

---

(١) الكشاف ١٣٣/٢ ، ط / دار المعرفة ، بيروت .

(٢) الفخر الرازي ٥٢٨/٨ ، ط دار الغد .

ماله ووالده وولده والناس أجمعين بل ومن نفسه التي بين جنبيه قال القرطبي عند قوله تعالى :﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ قال (أى قواك بنصره وبالمؤمنين قال النعمان البشير: نزلت فى الأنصار ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي جمع بين قلوب الأوس والخزرج، وكان تآلف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي (ﷺ) ومعجزاته لأن أحدهم كان يلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها ، وكانوا أشد خلق الله حمية فألف الله بالإيمان بينهم حتى قاتل الرجل أخاه بسبب الدين ، وقيل أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار والمعنى متقارب). [1]

هذا فى حق نبينا (ﷺ) أما في حق أمته المؤمنة به المخلصة لله تعالى فقال الله تعالى ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. [2]

وهذه الآية الشريفة عطاء عظيم من الله تعالي وفضل منه على هؤلاء المؤمنين الذين وقفوا مع رسول الله (ﷺ) ووالوه وعادوا من عاداه حتى ولو كان أعداؤه آباءهم أو أبناءهم أو أخواتهم أو عشيرتهم.

ذكر السيوطي في سبب نزول هذه الآية ما أورده ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال : نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر، واخرج الطبراني والحاكم في المستدرك بلفظ جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتصدى لأبي عبية يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قصده أبوعبيدة

---

(١) تفسير القرطبي ٢٩٦٩/٤ ، ط دار الغد .

(٢) سورة المجادلة آية ٢٢ .

فقتله فأنزلت). [1]

وقوله تعالى :﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾ أي ثبت الإيمان ومكنه فى قلوبهم فهى مؤمنة مقيمة مخلصة ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ أي : قواهم بنصره وتأييده.

قال الخازن : "قال ابن عباس نصرهم على عدوهم وسمي ذلك النصر روحا لأن به يحيا أمرهم. [2]

وقيل المقصود بالروح : القرآن وقيل الرحمة[3] وقد امتن الله على المؤمنين بهذه الآية الكريمة وبين أنه أيدهم بعد ضعف وعزهم بعد ذل ومكن لهم فى الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها ، قال تعالى مذكراً وممتناً على المؤمنين ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [4] ومازال تأييد الله تعالى واقعاً على المؤمنين والصادقين والمتقين والمخلصين لا ينقطع عنهم حتى تقوم الساعة.

٦- الصلاة من الله تعالى وملائكته على النبي (ﷺ) وعلى المؤمنين به:

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.[5]

فهذا نص صريح من القرآن الكريم من أن الله تعالى يصلي على نبيه (ﷺ) وكذلك تصلى عليه الملائكة وبعد ذلك أمر المؤمنين به – أن يصلوا عليه (ﷺ).

---

(١) أسباب النزول للسيوطي ١٩٣ ، ط المتنبي .

(٢) تفسير الخازن ٢٤٤/٤ ، ط اليمنية .

(٣) الرازي ٤٦٢/١٥ ط دار الغد .

(٤) سورة الأنفال آية ٢٦ .

(٥) سورة الأحزاب آية ٥٦ .

قال القرطبي (والصلاة من الله : رحمته ورضوانه، ومن الملائكة :الدعاء والاستغفار، ومن المؤمنين: الدعاء والتعظيم لأمره). [1]

ومعنى الآية : أن الله تعالى يرحم نبيه ويرفع مقامه ومنزلته ويعظم ويعلى من شأنه، والملائكة رضوان الله عليهم يدعون له (ﷺ) ويستغفرون الله له ويطلبون من الله أن يمجد عبده ورسوله وينيله أعلى المراتب وأرفع المنازل.

قال الصاوي:(وحكمة صلاة الملائكة والمؤمنين على النبي (ﷺ) تشريفهم بذلك حيث اقتدوا بالله جل وعلا في الصلاة وتعظيمه ومكافأة لبعض حقوقه على الخلق لأنه الواسطة العظمي في كل نعمة وصلت لهم وحق على من وصل له نعمة من شخص أن يكافأه ولما كان الخلق عاجزين عن مكافأته (ﷺ) طلبوا من القادر الملك أن يكافئهم وهذا هو السر في قولهم اللهم صلي على محمد. [2]

هذا عن نبينا (ﷺ) أما عن المؤمنين به وعطاء الله لهم فقد قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [3]

وقال ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾. [4]

وصلاة الله تعالى على العبد بمعنى أن الله يرحمه على الدوام ويعتني بأمره وبما فيه صلاحه وفلاحه.

قال القرطبي : (قال ابن عباس :﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ قال المهاجرون والأنصار :هذا لك يا رسول الله خاصة وليس لنا فيه شئ فأنزل الله هذه الآية " ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾ وهذه نعمة من الله على هذه الأمة). [5]

---

(١) القرطبي ٨ / ٥٥٠٠ ، ط دار الغد .

(٢) حاشية الصاوي ٢٣٨/٣ ط الحلبي .

(٣) سورة الأحزاب آية ٤٣ .

(٤) سورة البقرة آية ١٥٦ - ١٥٧ .

(٥) القرطبي ٨ / ٥٤٦٦ .

وصلاة الله على بعض هذه الأمة نعمة من أكبر النعم ودليل على فضيلتها على سائر الأمم والصلاة من الله على العبد هى رحمته له وبركته لديه وصلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين واستغفارهم لهم كما قال ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفى الحديث أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام أيصلي ربك جل وعز ؟ فأعظم ذلك فأوحى الله جل وعز أن صلاتي بأن رحمتي سبقت غضبي). (١)

فأنت ترى – عفا الله عنك – أن صلاة الله تعالى بمعنى رحمته وعفوه وإحسانه عطية من الله لنبيه (ﷺ) وأيضا عطية للمؤمنين به.

قال السيوطي (أخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : لما نزلت ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قال أبو بكر ما خصك الله يا رسول الله بشرف إلا وقد أشركنا فيه فأنزل الله هذه الآية " يعني بالآية قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ (٢)

---

(١) (٣) أسباب النزول للسيوطي ١٦١، ط المتنبي .

٧- الفتح من الله لنبيه (ﷺ) ولأهل الإيمان من أمته :

قال تعالى مخاطباً نبيه (ﷺ) ممتدحاً له ممتناً عليه ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾.[١]

قال الراغب (الفتح : إزالة الإغلاق والإشكال وذلك ضربان : أحدهما يدرك بالبصر لفتح الباب ونوه ومنه قوله " ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ﴾ والثاني : يدرك بالبصيرة كفتح الهم وهو إزالة الغم وذلك ضروب.

أحدهما : فى الأمور الدنيوية كغم يفرج وفقر يزال بإعطاء المال ونحوه نحو ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى وسعنا.

والثاني : فتح المستغلق من العلوم نحو قولك فلان فتح من العلم بابا منغلقا وقوله ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ قيل عني ما فتح على النبي من العلوم والهدايات التى هى ذريعة إلى الثواب والمقامات المحمودة التي صارت سبباً لغفران ذنوبه".[٢]

والمراد بالفتح عند جمهور المفسرين هو صلح الحديبية سمي فتحاً لأن بسببه حصل خير كثير وجزيل وأمن للناس واجتمع بعضهم ببعض وتحدث المؤمن مع الكافر وانتشر العلم والإيمان، روى البخاري عن البراء بن عازب (ﷺ) قال "تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كانت مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول الله (ﷺ) أربع عشرة مائة – والحديبية بئر فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فبلغ ذلك الرسول (ﷺ) فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها غير بعيد ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا". [٣]

---

(١) سورة الفتح آية ١ .

(٢) المفردات للراغب ٣٧٠ ط الجمهورية .

(٣) البخاري كتاب بدء الخلق باب غزوة الحديبية .

روي ابن هشام عن الزهري قوله "ما فتح فى الإسلام فتح قبله – أى صلح الحديبية وما كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه فلقد كان فى تينك السنتين مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك وأكثر".[1]

فأنت ترى – غفر الله لك – فى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى قد أكرم النبي (ﷺ) بنعمة الفتح ، وكلمة الفتح كلمة عامة شاملة لكل خير فهي تشمل كل فتح لرسول الله ﷺ ومما لاشك فيه – وكما هو مشاهد ومحسوس – أن الله فتح لنبيه البلاد وقلوب العباد فآمن به أصحابه ومن بعدهم وصدقوه ونصروه وعزروه، وفتح الله له الأمصار والأقاليم فانتشر دينه فى فترة زمنية قليلة لا تكاد تصل إلى ربع قرن من الزمان وإذا كان الله قد امتن على نبيه (ﷺ) بهذه النعمة – نعمة الفتح – فقد امتن الله تعالى على أصحابه والمؤمنين به أيضا بالفتح قال تعالي : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.[2]

وهذه الآية الكريمة يخبر الله فيها عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله (ﷺ) تحت الشجرة.

قال المفسرون : كان سبب هذه البيعة أن رسول الله (ﷺ) لما كان في الحديبية ومنع من العمرة هو وأصحابه وأرسل رسلاً إلى أهل مكة وكان آخر رسله عثمان بن عفان (ﷺ) ليخبر أهل مكة أنه جاء معتمراً لا محارباً فلما ذهب عثمان حبسه القرشيون عندهم وجاء الخبر لرسول الله (ﷺ) أن عثمان قد قتله الكفار فدعا رسول الله (ﷺ) المسلمين إلى بيعة الرضوان وكانت تحت الشجرة

---

(١) ابن هشام ٧٨٧ ط دار المعارف.

(٢) سورة الفتح آية ١٨ .

فلما علم المشركون بذلك استولى عليهم الخوف وتملكهم الرعب وأطلقوا عثمان وطلبوا الصلح مع رسول الله (ﷺ) على أن يأتي فى العام القابل ويدخل مكة ويقيم فيها ثلاثة أيام وتم التصالح بين المسلمين والمشركين على شروط ليس هذه موضع بيانها فأنزل الله تعالى تلك الآية ليسلي المسلمين ويسوق إليهم هذه البشارة العظيمة الكريمة .

وقوله تعالى ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، قال القرطبي ما ملخصه "أى : فعلم ما فى قلوبهم" من الصدق والوفاء .

وقال ابن جريج وقتادة من الرضا بأمر البيعة على ألا يفروا وقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بايعوا والسكينة والطمأنينة وسكون النفس إلى صدق الوعد وقيل الصبر. (١) وقوله تعالى ﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أراد بالفتح فتح خيبر لأنه كان عقب صلح الحديبية. وقوله تعالى ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾.

قال ابن كثير "هو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم وما حصل بذلك الخير العام بفتح خيبر ثم فتح سائر البلاد والأقاليم وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة. (٢)

٨- النصر فى كل الأمور للنبي (ﷺ) ولأهل الإيمان من أمته :

قال تعالى فى حق النبي (ﷺ) - ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ (٣) وهذا خطاب النبي (ﷺ) ونعمة من الله ظاهرة.

والمعنى وينصرك الله على أعدائك نصراً قوياً منيعاً لا غلبة فيه بل هو نصر فيه عزّ ، ويجمع لك الله بهذا النصر بين عز الدنيا وكرامة الآخرة.

---

(١) القرطبي ٩ / ٦٣٢٩ ط دار الغد.

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ١٩١ ط الحلبي.

(٣) سورة الفتح آية ٣ .

وقال تعالى فى حق المؤمنين من أمته (ﷺ): ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وهو وعد من الله تعالى لا يختلف فى أى زمان وفى أى مكان ، والمعنى : وكان حقاً واجباً علينا أن ننصر المؤمنين على الكافرين

قال أبو حيان فى البحر: والآية اعتراض بين قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ جاءت تأنيساً للرسول (ﷺ) وتسلية له ووعداً له بالنصر ووعيداً لأهل الكفر.[2]

وقد جاء وعد الله تعالى بالنصر للأنبياء والمرسلين وكذلك معهم المؤمنون فى قوله تعالى﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[3] فكان وعد الله تعالى بالنصر مشتركاً بين المرسلين والمؤمنين لأن المؤمنين على طريق المرسلين سائرون وبهديهم ومنهجهم مقتدون وسنة الله تعالى واحدة لا تتخلف ولا تتغير ولا تتبدل﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.[4]

وقد يدور بأذهان كثير من الناس هذا التساؤل وهو: كيف وعد الله تعالى بنصر الرسل والمؤمنين فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد ، وبعض الأنبياء قتله قومه كيحيى وزكريا ، ومن الأنبياء من خرج من بين ظهراني قومه أما مهاجراً كإبراهيم وإما إلى السماء كعيسي فأين النصرة فى الدنيا؟

ويرحم الله الإمام ابن جرير فقد أورد جوابين على هذا التساؤل قال ما ملخصه (أحدهما : أن يكون الخبر خرج عاما والمراد به البعض وهذا سائغ في اللغة.

---

(١) سورة الروم آية ٤٧ .

(٢) البحر المحيط ٧ / ١٧٣ ط بيروت .

(٣) سورة غافر آية ٥١.

(٤) سورة فاطر آية ٤٢ .

والثاني : أن يكون المراد بالنصر : الانتصار لهم ممن آذاهم وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل بقتلة يحيي وزكريا سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دمائهم ، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين رموا صلب المسيح عليه السلام – من اليهود فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وآذوهم وأظهرهم الله عليهم ، ثم قيل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه السلام إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً فيقتل المسيخ الدجال وجنوده من اليهود ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام".[1]

وأيضا مما ورد فى تأكيد نصر المؤمنين قوله تعالى "ولينصرن الله من ينصره"[2] وهو قسم مؤكد من الله تعالى متحقق الوجود لا شك فيه ولا ريب.

يقول البيضاوي : وقد أنجز الله وعده بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسره العجم وقياصرتهم وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ على نصرهم ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يمانعه شئ)[3] وقوله تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾. أى : ننصر الرسل والمؤمنين بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة المجرمين في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي : وفى الآخرة يوم يحضر الأشهاد الذين يشهدون – بأعمال العباد من ملك ونبي ومؤمن وقد صدق الله وعده ونصر عبده (ﷺ) والمؤمنين معه وأعزهم وهزم الأحزاب وكل الأعداء وحده سبحانه وتعالى وهذه سنته جل وعلا في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا والآخرة . وروى البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن رسول الله (ﷺ) قال "إن الله قال : من عادى لى

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/٧٤ ، ط الحلبي

(٢) سورة الحج آية ٤٠ .

(٣) البيضاوي ٤٤٥ ، ط دار الجيل .

وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضته عليه"[1] الحديث وقد قص علينا القرآن الحكيم أنباء السابقين وأخبار السالفين ، وحدثنا أنه أهلك أقوام الأنبياء المكذبين لهم ، ونصر أنبياءه ورسله والمؤمنين بهم معهم فقال تعالى﴿ فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.[2]

قال السدى "لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه أو قوما من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها). [3]

٩- الأمان من الخزي يوم القيامة من فضل على النبي (ﷺ) والأمة :

يقول الله تعالى ممتنا عليه وعلى الذين آمنوا معه﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.[4]

قال الراغب : "الخزي مأخوذ من خزى الرجل إذا لحقه انكسار لما من نفسه وإما من غيره فالذي يلحقه من نفسه هو الحياء المفرط ، ومصدرية الخزاية ، والذي يلحقه من غيره يقال هو ضرب من الاستحقاق ومصدره الخزى ومنه قوله ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ " وقوله ﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي﴾ من الخزي

---

(١) البخاري كتاب الرقاق باب التواضع .

(٢) سورة العنكبوت آية ٤٠

(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ٨٤ ، ط الحلبي .

(٤) سورة التحريم آية ٨ .

أقرب وإن جاز أن يكون منهما جميعا انتهي ملخصا [1] وإنه لشرف ما بعده شرف وتكريم ليس فوقه تكريم أن يصحب المؤمنون رسول الله (ﷺ) يوم القيامة ولا يحلقهم أذى ولا انكسار ، ويدخلون الجنة معه وينعمون بشتى أنواع النعيم .

يقول المرحوم سيد قطب : (إنه لإغراء مطمع وتكريم عظيم أن يضم الله المؤمنين إلى النبي (ﷺ) فيجعلهم صفاً واحداً يتلقي الكرامة في يوم الخزي ثم يجعل لهم نورا يسعى بين أيديهم وبإيمانهم نوراً يعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب ، نوراً يهتدون به في الزحام المريج ونوراً يسعى بين أيديهم وبإيمانهم إلى الجنة في نهاية المطاف) [2] أما أهل الإيمان من أمته فنجاهم الله من الخزي يوم القيامة لأنهم كانوا يقولون كما حكي القرآن عنهم ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [3]. فاستجاب الله دعاءهم ومن عليهم ، وقوله تعالى ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أى نور هؤلاء المؤمنين يسطع لهم على الصراط يضئ أمامهم وخلفهم ، وينير عن إيمانهم وشمائلهم قال أبو السعود (وفيه تعريض بمن أخزاهم الله تعالى من أهل الكفر والفسوق) [4] والنور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين هو إحدى العلائم التى يعرف بها رسول الله (ﷺ) المؤمنين يوم القيامة وإحدى الخصوصيات لأهل الإيمان من أمة النبي (ﷺ) .

يقول ابن كثير (روي ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء وأبي ذر (رضي الله عنهما) عن رسول الله (ﷺ) قال "أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود وأول من يؤذن له برفع رأسه فأنظر من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي فأعرف أمتى

---

(١) المفردات للأصفهانى ١٤٧ ، ط الجمهورية .

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٦١٨ ، ط الشروق .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٩٤ .

(٤) تفسير أبو السعود ٥ / ١٧٥

من بين الأمم فقال له رجل : يا نبي الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم ما بين نوح إلى أمتك فقال : أعرفهم مُحَجَّلون من أثر الوضوء ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم وأعرفهم يؤتون كتبهم بإيمانهم وأعرفهم بسيماهم في وجوههم وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم. (١)

وبالجملة فالآية الشريفة عطاء من الله لنبينا (ﷺ) وتشريف له وكذلك عطاء وتشريف لأهل الإيمان من أمته (ﷺ) .

١٠- في إكمال العطاء وإتمام الإحسان حتى يتحقق الرضا للنبي والصادقين من أمته:

يقول الله تعالى في حق نبيه ﷺ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ (٢) وقال تعالى ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ (٣) وهاتان الآيتان من منن الله تعالى على نبيه (ﷺ) فالعطاء في الآية الكريمة للنبي (ﷺ) يشمل العطاء في الدنيا بما أعطيه رسول الله ﷺ من النصر والظفر على أعدائه وانتشار دينه ، وذيوع دعوته ، وشيوع سيرته ، ويشمل العطاء في الآخرة من شفاعته ﷺ في المؤمنين من أمته والمقام المحمود والحوض المورود والشفاعة العظمي إلى غير ذلك من عطاء الله له في الآخرة.

يقول صاحب التحرير والتنوير (وحذف المفعول الثاني لـ ﴿يعطيك﴾ ليعم كل ما يرجوه (ﷺ) من خير لنفسه ولأمته فكان مفاد هذه الجملة تعميم العطاء ، وجيئ بفاء التعقيب في ﴿فترضى﴾ لإفادة كون العطاء عاجل النفع بحيث يحصل به رضى المعطي عند العطاء فلا يترقب أن يحصل نفعه بعد تربص ، وهو وعد واسع الشمول لما أعطيه النبي (ﷺ) من النصر والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح

---

(١) ابن كثير ٤ / ٣٩٣ ط الحلبي .

(٢) سورة الضحى آية رقم (٥)

(٣) سورة القلم آية رقم (٣)

مكة ودخول الناس في الدين أفواجاً ، وما فتح على الخلفاء الراشدين ومن بعدهم في أقطار الأرض شرقاً وغرباً) [1] ، وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أى غير مقطوع ، بل هو دائم مستمر.

قال ابن كثير (أى بل إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على أذاهم) [2].

وأما ما يناسب هذا العطاء الفخم الذي أعطيه رسول الله (ﷺ) قوله تعالى في شأن الصادقين المخلصين من أمة النبي (ﷺ) قوله تعالى ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ "[3] وقد نزلت هذه الآيات في الصديق أبي بكر (رضي الله عنه)[4] وتشمله وتشمل كل من اتصف ونعت بهذه النعوت الجميلة التى ذكرتها الآيات الشريفة وهو وعد من الله عزوجل والله لا يخلف الميعاد بالثواب الجميل الذي يرضى صاحبه يوم القيامة.

وأيضا مما يتناسب مع هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ .[5]

وهذه الآية الشريفة ترغب المؤمنين في الهجرة ابتغاء مرضاة الله وفى الجهاد في سبيله وتعدهم بالرزق الحسن والمدخل الذي يرضون عنه وهو الجنة يوم القيامة ، وقد ورد أن الله تعالى بعد أن يدخل المؤمنون الجنة يفيض عليهم من رضوانه وكرامته وعطائه وفضله ففى البخاري عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٣٩٨ ، ط الجماهيرية الليبية.

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٤٠٢ ، ط الحلبي.

(٣) سورة الليل آية ١٧ – ٢١

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٤ / ٥١٨ ط الحلبي.

(٥) سورة الحج آية ٥٩

قال: قال رسول الله (ﷺ) : "إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا : يا رب وأى شئ أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا".(١)

وأيضا من الآيات التى تثبت رضا الله على المؤمنين قوله تعالى﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(٢) وقوله تعالى ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.(٣)

فأنت ترى رحمك الله أن رضوان الله تعالى حال على النبي (ﷺ) وكذلك الصادقين المخلصين من أمته وذلك بسبب متابعتهم للنبي (ﷺ) واقتدائهم به في أقواله وأفعاله وصدق الله حين قال﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾(٤)

١١- الدعوة إلى الله تعالى والتبيين والبلاغ للناس فرض على النبي والأمة:

والدعوة إلى الله تعالى وتبيين سبيل الحق للناس وإبلاغهم ما أمر الله بإبلاغه فرض من الله على النبي (ﷺ) وعلى أمته قال تعالى﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٥) ومثل هذه الآية آيات كثيرة في القرآن الحكيم

---

(١) البخاري في كتاب الرقاق – باب صفة الجنة والنار ٨ / ١١٤ ، ومن القسطلاني٩ / ٣١٩ وخرجه البخاري أيضا في كتاب التوحيد باب كلام الرب مع أهل الجنة.

(٢) سورة البينة الآية رقم (٨)

(٣) سورة التوبة آية (١٠٠)

(٤) سورة الأحزاب آية (١٠٠)

(٥) سورة النحل آية رقم (٤٤)

منها قوله تعالى﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾[1] فرسول الله (ﷺ) هو المبلغ عن الله تعالى ومنه (ﷺ) وحده يتعلم الناس وقد أمره ربه بالبلاغ والتبيين في أكثر من موضع في القرآن قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾.[3]

أما أمة النبي (ﷺ) فهي الوارثة لرسالة نبيها (ﷺ) خاصة أهل العلم منهم وقد أوجب الله على المسلمين أن يبلغوا للناس دعوة الله ودعوة رسوله (ﷺ) قال تعالى ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[4]، وقال تعالى ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[5]

وبهذا التبليغ الذي فرض على أمة النبي (ﷺ) وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت أمة النبي (ﷺ) خير الأمم قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ وقد نعى القرآن الكريم على بني إسرائيل أنهم نكثوا عهودهم ونقضوا مواثيقهم مع الله حين أخذ عليهم العهد والميثاق أن يبينوا للناس ما أنزله الله في كتبهم فلم يأتمروا بهذا الأمر وخالفوا

---

(١) سورة النحل الآية رقم (٦٤)

(٢) سورة المدثر الآية (١ : ٧)

(٣) سورة المائدة الآية (٦٧)

(٤) سورة آل عمران الآية (١٠٤)

(٥) سورة التوبة الآية (١٢٢)

أمر الله تعالى قال الله عز وجل ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (١)

قال ابن كثير عند هذه الآية ما ملخصه (هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد (ﷺ) فكتموا ذلك وفى هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ويسلك بهم مسلكهم فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدال على العمل الصالح ولا يكتموا منه شيئاً وقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي (ﷺ) أنه قال "من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار"(٢)

وقد حذر الله المؤمنين من كتمان العلم وعدم إبلاغه للناس فقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (٣)، والآية وأن كانت نزلت في علماء اليهود حين كتموا صفة نبينا محمد (ﷺ) ولم يؤمنوا به إلا أنها عامة في كل من كتم الحق ولم يدل الناس عليه لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال الألوسي ما ملخصه (والأقرب أنها نزلت في اليهود والحكم عام كما تدل عليه الأخبار وكونها نزلت في اليهود لا يقتضى الخصوص وقد روي البخاري وابن ماجة وغيرهما عن أبي هريرة (ﷺ) عنه أنه قال: لولا آية في كتاب الله تعالى ما حدثت أحداً بشئ أبداً ثم تلا هذه الآية) (٤) فكتمان الحق في الإسلام

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٧ .

(٢) ابن كثير ٤٣٦/١ ط الحلبي ، والحديث رواه أبو داود في كتاب العلم باب كراهية منع العلم عن أبي هريرة رقم ٣٦٥٨ والترمذي في أبواب العلم باب ما جاء في كتمان العلم عن أبي هريرة رقم ٢٦٤٩، وقال عنه الترمذي: هذا حديث حسن.

(٣) سورة البقرة آية ١٥٩

(٤) الألوسي ٢ / ٤٠ ، ط دار الفكر ، بيروت .

جريمة من أعظم الجرائم وكبيرة من أكبر الكبائر استحق صاحبها اللعن والطـرد من رحمة الله تعالى بمنطوق الآية السابقة.

قال الزمخشري عند تفسير لهذه الآية ما ملخصه (وكفي به دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس وألا يكتموا منه شيئاً لغرض فاسد من تسهيل على الظلمة وتطييب لنفوسهم واستجلاب لمسارهم أو لجر منفعة وحطـام دنيا أو لتقية أو لبخل بالعلم وغيره ، وعن على (ﷺ) قال : " ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا"[1]

وفى المقابل حث الشارع المؤمنين وحضهم على تبليغ دعوة الله ونشـر رسالة نبينا (ﷺ) ووعدهم على ذلك بالثواب العظيم والأجر الجزيل فعن رسول الله (ﷺ) أنه قال " نضر الله امرءاً سمع منى حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه"[2] وقوله (ﷺ) "بلغـوا عنى ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبـوأ مقعده من النار"[3]

إلى غير ذلك من الأحاديث والآثار التى تدل دلالة قاطعة علـى مشـاركة الأمة لنبيها (ﷺ) ووجوب ذلك عليها في البلاغ وتبيين الحق للناس كافة وهذا من عطاء الله للأمة بأن جعلها معلمة للناس كل الناس وحملها هذه الأمانة العظيمـة والتى هى أشرف واجب وأقدس فرض .

١٢- التثبيت للنبي والأمة :

وتثبيت الله أى : ربطه على القلب وإلهام القلب الصبر والتقوى وإلهامـه الحجج والبراهين التى تثبت دعوته وتهدم دعاوى غيره من نعم الله تعالى وفيضه

---

(١) الكشاف ١ / ٢٣٦ ، ط دار المعرفة ، بيروت .

(٢) مسند أحمد الفتح الرباني كتاب العلم باب في تبليغ الحديث عن رسول الله ١ / ١٦٤ ط الأولى .

(٣) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي أبواب العلم وما جاء في الحديث عن نبي إسرائيل ٤٣١/٧ ، ط الفجالة الجديدة. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

العظيم وقد أدرك الله نبيه (ﷺ) بهذه النعمة ومنحه تلك المنة قال تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ (١) وقد نزلت هذه الآية الكريمة رداً على اعتراضات المشركين على القرآن الكريم والتى منها كما حكى القرآن الكريم نزوله مفرقاً فرد الله عليهم هذه الفرية وتلك المرية معللاً نزول القرآن جملة واحدة بتثبيت فؤاد النبي (ﷺ) وتطميناً له بإمداده بالحجة البالغة كلما فتحوا له بابا من الجدل وكلما اقترحوا واعترضوا عليه باعتراض فرضه عليهم كفرهم وعنادهم فهم محجوجون في كل وقت وحين ، وهذا التثبيت على القلب وإلهامه الحجة حاصل للمؤمنين أيضا في مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) وتثبيت المؤمنين هو تسليحهم بفضيلة الصبر واليقين والتقوى على الكافرين والربط على القلب بالثقة في نصر الله وتأييده وذلك بما يقصه الله تعالى من أخبار الأمم السابقة من أنباء المصدقين والمكذبين وعاقبة كل فريق واستخلاص النتائج من كل ذلك قال تعالى ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣)

وأيضا تثبيت المؤمنين مستفاد بل هو صريح قول الله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٤)

قال الألوسي عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه (أى يثبتهم بالبقاء على الإيمان وكلمة التوحيد مدة حياتهم فلا يزالون إذا قيض لهم من يفتنهم ويحاول

---

(١) سورة الفرقان آية ٣٢

(٢) سورة النحل آية (١٠٢).

(٣) سورة هود آية (١٢٠) .

(٤) سورة إبراهيم آية (٢٧).

زللهم عنه كما جرى لأصحاب الأخدود ولبلال﷿ وكثير من أصحاب النبي (ﷺ)[1] وأيضا فكلمة التثبيت كلمة عامة تشمل تثبيت المؤمنين على إيمانهم ويقينهم في الدنيا وتشمل التثبيت في القبر وتشمل التثبيت في الآخرة وهذا من عطاء الله وفضله على أمة النبي محمد (ﷺ).

١٣- الشفاعة للنبي (ﷺ) وللأمة يوم القيامة :

قال تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ﴾[2] وقال تعالى ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[3]

الشفاعة هى أن يطلب الأدني من الأعلى مساعدته بما يريد والمقصود بها في القرآن والحديث : السؤال عن التجاوز عن الذنوب والآثام .

ومذهب أهل السنة والجماعة هو وجوب الإيمان بالشفاعة للأدلة الصريحة الواردة في ذلك من القرآن أو السنة الشريفة ، قال النووي في شرح مسلم : "وقد جاء في الآثار التى بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها"[4] وقال ابن حجر في الفتح: "وأخرج سعيد بن منصور في سننه بسند صحيح عن أنس : قال " من كذب بالشفاعة فلا نصيب له فيها. وأخرج البيهقي في البعث عن طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس : خطب عمر فقال : إنه سيكون في هذه الأمة قوم يكذبون بالرجم ويكذبون بالدجال ويكذبون بعذاب القبر ويكذبون بالشفاعة ويكذبون بقوم يخرجون من النار . وقال أنس : يخرج قوم من النار ولا نكذب بها كما يكذب بها أهل حاروراء ثم نقل ابن حجر عن ابن بطال قوله: أنكرت المعتزلة

---

(١) روح المعانى ٨ / ٣١٤ ، ط دار الفكر ، انظر البحر المحيط ٥ / ٤١٢ دار المعرفة – بيروت .

(٢) سورة البقرة آية ( )

(٣) سورة الأنبياء الآية ( )

(٤) النووي شرح مسلم ٣ / ٣٥

والخوارج الشفاعة في إخراج من أدخل النار من المذنبين وتمسكوا بقوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [1] وغير ذلك من الآيات ، وأجاب أهل السنة بأنها في الكفار وجاءت الأحاديث في إثبات الشفاعة المحمدية متواترة ودل عليها قوله تعالى : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ والجمهور على أن المراد به الشفاعة وبالغ الواحدى فنقل فيه الإجماع). [2]

والشفاعة قدر مشترك بين النبي محمد (ﷺ) وبين المؤمنين من أمته فشفاعته (ﷺ) يوم القيامة متعددة فمنها :

١- **الشفاعة العظمي** : وتكون في كل الخلائق من هول الزحام وشدة الكرب وعظم الخطب وإراحة الناس من ذلك والتعجيل بالفصل بينهم ، يقول أستاذنا أ. د/ موسى شاهين في فتح المنعم عن هذه الشفاعة (يحشر الله الناس يوم القيامة ، يجمع الأولين والآخرين منذ آدم إلى النفخ في الصور على أرض بيضاء نقية ملساء مستوية لا ترى فيها عوجاً ولا أمتي ولا شجراً ولا حجراً ولا مدراً ، ولو أن ناظراً نظر إليهم لرآهم جميعا ولو أن متكلماً ناداهم لأسمعهم جميعاً حفاةً عراةً الرجال والنساء جميعاً لكن لا ينظر بعضهم إلى بعض ولا يفكر أحدهم في غير نفسه لكل امرئ منهم شأن يغنيه والخوف من المصير الذي يتملكهم والشعور بالصغار وحقيقة أنفسهم يملأ قلوبهم ، يقفون كما يقف الجاني في قفص الاتهام ، ينتظرون فصل القضاء وتدنوا الشمس من رؤسهم وتشتد حرارتها عليهم ويطول وقوفهم ويسيل عرقهم أهوال وأهوال فوق التصور والخيال في وقت واحد وفى مكان واحد وفى أرض مستوية لكن منهم من يبلغ عرقه كعبه ومنهم من يبلغ ساقه ومنهم من يبلغ فخذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ منكبيه ومن يبلغ فاه ومنهم من يغطيه عرقه ، لا تقل كيف والماء على الأرض المعتدلة يغطي

---

(١) سورة المدثر آية : ٤٨ .

(٢) فتح الباري ١١ / ٤٠٦ ط دار الفكر .

عليها على السواء إنها خوارق الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد إنه ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون فيبلغ الناس من الهم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون يفزع بعضهم إلى بعض ، ألا ترون إلى ما قد وصلنا إليه ووصل إلينا من الكرب ، أما من نهاية لما نحن فيه من الغم ، ألا نستشفع لربنا ليريحنا من مكاننا). [1] وإنه ليوم شديد حقاً يتمنى الناس الانصراف منه ولو إلى النار ومع ذلك تدركهم رحمة ربهم فيلهمون أن يذهبوا إلى آدم أبي البشر ويحيلهم إلى نوح ويحيلهم نوح إلى إبراهيم وإبراهيم يحيلهم إلى موسى ويحيلهم موسى إلى عيسى وكل منهم يتذكر خطيئته فيعتذر عن تلك الشفاعة حتى ينتهى الأمر إلى رسول الله (ﷺ) فيقول: أنا لها أنا لها ، فيقول بتلك الشفاعة لكي يتفضل ربنا سبحانه فيبدأ بالفصل بين العباد لكي يستريحوا من هول الموقف وهى الشفاعة العظمي ، وهى المقام المحمود ، وهى من خصائص رسولنا محمد (ﷺ) ودليلها الحديث الطويل الذي رواه البخاري ومسلم : عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) وفيه "فيقال لي : ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه .. الحديث "[2] .

٢- الشفاعة في إدخال قوم الجنة بغير حساب ، وفى صحيح مسلم "فأرفع رأسي فأقول يا رب أمتي أمتي ، فيقال يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. [3] وهذا الجزء من الحديث واضح الدلالة على شفاعته (ﷺ) في إدخال قوم الجنة بغير

---

(١) فتح المنعم ٢ / ٥١٧

(٢) (٣) البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار واللفظ له ، ورواه مسلم بروايات متعددة في كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة .

(١) البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار واللفظ له ، ورواه مسلم بروايات متعددة في كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة

حساب وهى من خصائصه (ﷺ) لا يقوم بها غيره ، روى الترمذي عن أبي أمامة (رضي الله عنه) قال : سمعت (ﷺ) يقول: "وعدنى ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعين ألفا وثلاث حثيات من حثياته"[1]

٣- الشفاعة في من دخل النار من عصاة المؤمنين فيخرجون من النار قبل أن يستوفوا ما عليهم من عذاب ، عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: "يخرج قوم من النار بعدما مسهم منها سفع ــ حرارة النار ــ فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين"[2] ، وعن عمران ابن حصين (رضي الله عنه) قال: قال (ﷺ) : "يخرج قوم من النار لشفاعة محمد (ﷺ) فيدخلون الجنة ويسمون الجهنميون"

٤- الشفاعة بزيادة الدرجات في الجنة ، عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال : أنا أول شافع يشفع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعا[3] ، ووجه الدلالة في هذا الحديث أنه (ﷺ) جعل الجنة ظرفاً لشفاعته وذكر ابن حجر أن النووي أشار في الروضة إلى أن هذه الشفاعة من خصائصه (ﷺ) وعقب ابن حجر فقال : مع أنه لم يذكر مستندها[4] . والشفاعة التى في الجنة لزيادة الدرجات لأهلها ثابتة قطعا والأدلة واضحة عليها ولكن النقاش يدور فقط حول هل هى من خصائصه أو يشاركه فيها غيره. [5]

١- الشفاعة في تخفيف العذاب عن أبي طالب بسبب تأييده ونصرته للنبي(ﷺ):

والدليل ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) : أنه سمع رسول الله (ﷺ) وقد ذكر عنده عمه أبو طالب فقال : "لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منهما دماغه".[6] وعن العباس (رضي الله عنه) قال :

---

(١) الترمذي كتاب القيامة باب ما جاء فى الشفاعة ٢ / ٥١٧ وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب

(٢) البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار .

(٣) مسلم كتاب الإيمان ، باب قوله (ﷺ) أنا أول الناس يشفع في الجنة .

(٤) قطف الثمار من هدي سيد الأبرار ، أ د / مروان شاهين ص ٦٦ ، ط بدون

(٦) البخاري كتاب مناقب الأنصار ، باب قصة أبي طالب .

يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشئ فإنه كان يحوطك ويغضب لك ، قال (ﷺ) : "نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار"[1] والضحضاح الوارد في الحديثين هو ما كان من الماء على وجه الأرض يبلغ الكعبين واستعير للنار والمعني : أنه في النار حتى كعبيه ولولا رسول الله (ﷺ) لكان في الدرك الأسفل من النار، وهذه الشفاعة خاصة برسول الله (ﷺ) .

هذا فضل الله على النبي (ﷺ) في القيامة وهاتيك منزلته ومكانته أما فضل الله على الأمة ومنزلتها يوم القيامة في موضوع الشفاعة فللأمة يوم القيامة شفاعات متعددة منها :

١- **شفاعة المؤمنين لإخوانهم المذنبين** ، ودليله حديث البخاري الطويل عن أبي سعيد الخدرى (رضي الله عنه) وفيه قوله (ﷺ) : "حتى إذا رأوا (أى المؤمنون) أنهم قد نجوا وبقى إخوانهم يقولون ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا ، فيقول الله سبحانه وتعالى اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ، ويحرم الله صورهم على النار فيأتونهم وبعضهم قد غاب فى النار إلى قدمه وإلى أنصاف ساقيه فيخرجون من عرفوا ثم يعودون فيقول اذهبوا فمن وجدتم مثقال نصف دينار فأخرجوه فيخرجون من عرفوا ثم يعودون فيقول اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه فيخرجون من عرفوا"[2]

٢- **الشهداء يشفعون لأقاربهم يوم القيامة** ، روى الترمذي عن المقداد بن معد يكرب قال: قال (ﷺ) : "للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له في أول دفعة ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار : الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة ويشفع في سبعين من أقاربه"[3]

---

(١) مسلم كتاب الإيمان باب شفاعته (ﷺ) لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه .

(٢) البخاري كتاب بدأ الخلق ، باب وكان عرشه على الماء ٦ / ١٥٩ ط الشعب .

(٣) الترمذي ، كتاب فضائل الجهاد ، باب في ثواب الشهيد ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب

٣- **القرآن الكريم يشفع لصاحبه وقرائه العاملين به** ، روي مسلم عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول (ﷺ) يقول : "اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه"[١]

٤- **الصيام يشفع لصاحبه يوم القيامة** ، روي الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال : "الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة يقول الصيام أيا ربي : منعته الطعام والشراب في النهار فشفعني فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعني فيه ، قال : فيشفعان"[٢]

٥- **شفاعة رجل من أمة النبي (ﷺ) في إدخال قوم الجنة أكثر من بني تميم** ، فعن عبد الله ابن الجدعاء قال ، قال رسول (ﷺ) : "ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم"[٣] وعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال : قال (ﷺ) : "من أمتي من يشفع للفئام ومنهم من يشفع في القبيلة ومنهم من يشفع للعصبة ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخل الجنة"[٤] ، الفئام : الجماعة الكثيرة ، القبيلة أقل منها ، العصبة أقل من القبيلة ، كل واحد يشفع بقدر مكانته عند الله تعالى ، وعن عثمان (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال : "يشفع يوم القيامة ثلاث الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء"[٥]

تنبيه :

ركزت في موضوع الشفاعة لظهور رأى لأحد المستنيرين[٦] يرى فيه استحالة الشفاعة وبطلانها ونحن أثبتنا الشفاعة ابتداءً من رسول الله(ﷺ) إلى آحاد المؤمنين من أمة محمد (ﷺ) وكل ذلك ثابت بالسنة الصحيحة ، ومما اتفق

---

(١) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة .

(٢) مسند أحمد ٢ / ١٧٤

(٣) رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان والحاكم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٩٤٦/١ برقم ٥٣٦٤

(٤) الترمذي ، قال عنه حديث حسن ، كتاب صفة القيامة باب الشفاعة ٢ / ١٥ .

(٥) رواه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر الشفاعة ، ص ٦٣٤ ، ط المكنز الإسلامي.

(٦) الدكتور / مصطفي محمود .

عليه أهل السنة والجماعة ولم ينكرها إلا بعض الطوائف مثل المعتزلة وغيرهم احتجاجا بظواهر بعض الآيات التى تنفي الشفاعة مثل قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[1] ومثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [2] ، كقوله تعالي :﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ "[3] وكقوله ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [4]

والتوفيق بين وقوع الشفاعة وما سبق من آيات ظاهرها عدم وقوع الشفاعة أن الشفاعة المنفية في القرآن الكريم المقصود بها الشفاعة للكافرين الجاحدين المكذبين لله ولرسوله (ﷺ) أو أن الشفاعة المنفية هى التى تطلب من غير الله تعالى قال سبحانه : ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ* قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [5]

وقد ساق أ.د/ مروان شاهين شروط تحقق الشفاعة يوم القيامة كما نص عليها العلماء وهى :

١- الإذن من الله تعالى لمن يقومون بالشهادة وعلى هذا فلا تقبل شفاعة إلا بإذنه تعالى ، قال عز وجل : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ ﴾ [6]

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٤

(٢) سورة الأنعام آية (٥١)

(٣) سورة غافر آية (١٨)

(٤) سورة المدثر آية (٤٨)

(٥) سورة الزمر آية (٤٣ - ٤٤)

(٦) سورة البقرة آية بعض آية (٢٥٥)

٢- أن يكون المشفوع له مسلماً والشفاعة المنفية لغير المسلمين ، يقول تعالى حاكياً عن الكفار في سورة الشعراء :﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[١]، وقوله تعالى :﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ وهذا يدل على أن الكافرين ليست لهم شفاعة .

٣- أن يرضى الله عن المشفوع له ويدل عليه قوله تعالى :﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[٢] وعلى هذا فإن الشفاعة المنفية إنما هى عمن لا يرضى الله تعالى، أما من رضى له الشفاعة فهى واقعة وثابتة إن شاء الله .

٤- أن يكون الشافع مؤمناً يشهد بالحق لأن غير المؤمن لا يشهد بالحق ، قال تعالى : ﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ [٣]

وإتماماً للفائدة نذكر الشفاعة الأخيرة وهى لله عز وجل وهى للذين لم يعملوا خيراً قط ، روي البخاري ومسلم من الحديث الطويل قوله (ﷺ) : "فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون فيقول الجبار بقيت شفاعتي وفى رواية الإمام مسلم "ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط"[٤]

تنويه هام :

ما سبق لا يعتبر حصراً لعطاءات الله تعالى للنبي وأمته في القرآن الكريم وإنما هو غيض من فيض وقطرة من بحر وإلا فنبينا (ﷺ) لا يعرف قدره ولا

---

(١) سورة الشعراء آية (١٠٠ - ١٠١)

(٢) سورة الأنبياء آية بعض آية (٢٨)

(٣) قطف الثمار من هدي سيد الأبرار ، أ . د / مروان شاهين ، ص ٦٠ ، ط بدون ، والآية من سورة الزخرف بعض آية (٨٦) .

(٤) البخاري كتاب التوحيد ، باب قوله (وجوه يومئذ ناظرة) ، مسلم كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية

مكانته إلا الله عز وجل، وإن فضل الله على نبيه لعظيم، ولا يستطيع إنسان أن يعدد ولا أن يحصر فضل الله على نبيه (ﷺ) وكذلك أمته العاملة بالكتاب الكريم والمقتفية أثره الشريف (ﷺ).

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين انزل الكتاب على عبده ولم يجعل له عوجاً والصلاة والسلام على أكرم رسول وأشرف مبعوث حبيب الحق وخير الخلق (ﷺ) فى كل وقت وحين .

وبعد ،،،

فإن لكل بحث نتائج ودروساً مستفادة وعبراً ينبغي أن يقف عندها الباحث المدقق وهاك بعض نتائج هذا البحث :

١ - اصطفاء الله للأمة المحمدية واجتباؤه لها ورفعه إياها فوق جميع الأمم لأنها الأمة الخاتمة والتابعة لخاتم النبيين سيدنا محمد (ﷺ) دلت على ذلك الآيات وأفادت بذلك الأحاديث والآثار.

٢ - فضل سيدنا ومولانا محمد رسول الله (ﷺ) وأنه سيد ولد آدم وأحب خلق الله إلى الله لا يقبل الله ممن لا يؤمن به صرفاً ولا عدلا ويضرب بإيمانه في وجهه لا ينفعه قيد أنملة .

٣ - فضل الله الواسع وعطاؤه الكبير للنبي (ﷺ) وامتداد هذا العطاء واتساع ذلك الفضل حتى يشمله (ﷺ) ويشمل المخلصين من أمته وذلك إكراماً من الله لنبيه (ﷺ) .

هذه أهم نتائج هذا البحث ولا أدعى أنى أحطت البحث من كل جوانبه فطبيعة البشر النقص ، والكمال المطلق لله عز وجل ولكنها محاولة للنظر في كتاب الله تعالى والكشف عن بعض أسراره المعجزة واستلهام العبرة من ذلكم الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد فإن وافقت الحق فالحمد لله في الأولى وفي الآخرة وإن أخطأت الحق فعفو الله واسع ومغفرته شاملة وهو سبحانه خير مسئول وأكرم مأمول . ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا

وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

اللهم إنا نسألك أن تجعلنا من أهل القرآن العاملين به المنتفعين بهديه السالكين على منهاجه والثائرين على سنة رسولنا (ﷺ) حتى ننتظم فى سلك المنتفعين بهديه المخلصين بدعوته واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولمشايخنا وأصحاب الحقوق علينا إنك سميع قريب مجيب الدعاء .

وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الفقير العفو لمولاه

د/ محمود عبد اللطيف صالح محمد

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج